الفتح الاسلامي وسياسة الاسكان لساحل دمشق «لبنان»

عمر عبد السلام تدمري
كلية الآداب ــ الجامعة اللبنانية بطرابلس

من الملاحظ لكل من يتصدى لكتابة تاريخ ساحل الشام «لبنان» في العصر الوسيط من الفتح الاسلامي (الربع الأول من القرن الأول للهجرة) حتى حركة الحروب الصليبية (العشر الأخير من القرن ٥ هـ) ــ ندرة المعلومات المفصلة عن هذا الجزء الجغرافي والطبيعي من بلاد الشام، كما يلاحظ غموض بعض تلك المعلومات إن وجدت، وتناقضها بين مصدر وآخر، وورود تلك المعلومات بشكل مبستر أو مجتزأ، أو مرورها عرضاً، و بشكل موجز وغير مترابط، بحيث لا توفر للباحث مادة وافية لاغناء بحثه بالمعلومات التاريخية الموضوعية.

وان ندرة المعلومات الخاصة بساحل الشام تفرض على المؤرخ مساراً ومنهجية محددة في عملية التاريخ، كما تفرض عليه أن يبحث في عشرات المصادر المصنفة، ليس في فن التاريخ فحسب، بل وفي مصنفات الجغرافية التي تبحث في الأقاليم، والبلدان، وفي كتب الأدب، ودواوين الشعراء، وكتب الرحلات، وكتب الزهد والتصوف، وكتب الطبقات، وتراجم الرجال، والأنساب والمعاجم، وحتى في كتب الفقه، والاقتصاد، وغير ذلك مما يفيد و يربط بينها ليؤلف منها مادة تاريخية لها معطياتها المتتابعة حسب تسلسلها التاريخي، ولتأتي مترابطة الأحداث والوقائع، ولينسج منها الفكرة التاريخية، باتجاهاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والحضارية، التي تتوفر له.

واذا كانت هذه المعاناة من البحث تواجه الباحث الذي يتصدى لكتابة تاريخ «بلاد الشام» بكل حدودها التاريخية.. فكيف تكون المعاناة إذا كان البحث قاصراً على التاريخ لجزء صغير من هذه البلاد ؟

وفي الواقع، يمكن أن نعزو ندرة معلوماتنا التاريخية عن «ساحل الشام» أو عن المدن «اللبنانية» ــ التي في الأساس يبنى عليها تاريخ «لبنان» ــ في الفترة التي ندرسها إلى عدة معوقات، أهمها :

أولا : أن «ساحل الشام أو لبنان» بمجمل مدنه لم يخرج مؤرخاً يدون الأخبار والوقائع التاريخية، أو يصنف في هذا الفن عن تلك الحقبة من العصر الوسيط، رغم أنه ظهر فيه بعض الاخباريين الذين كانوا يخبرون ببعض الوقائع من المغازي والفتوحات التي عاصروها أو سمعوا بها من شيوخهم، أمثال :

هشام بن الليث الصوري[١]، وهشام بن الغاز الجرشي الصيداوي[٢]، وسعيد بن عبد العزيز التنوخي البيروتي[٣]: وقد روى عنهم المؤرخ البلاذري (المتوفى حوالي سنة ٢٧٩هـ)[٤].

ومعاوية بن يحيى أبو مطيع الأطرابلسي[٥] روى عنه الحافظ ابن عساكر الدمشقي (توفي ٥٧١هـ) على طريقة الاسناد المتبعة في علم الحديث[٦].

وسليمان بن أبي كريمة الصيداوي[٧]، والليث بن تميم الفارسي الأطرابلسي[٨]: وهما من مشيخة «ساحل دمشق» ينقل عنهما المؤرخ ابن جرير الطبري (توفي ٣١٠هـ) في

---

١. فارسي الأصل ممن أسكنهم معاوية بن أبي سفيان بساحل لبنان. والده هو: الليث بن تميم الفارسي من أهل طرابلس، يروي عن الوليد بن مسلم،عمر تدمري، موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان، ٥ج، المركز الاسلامي للاعلام والانماء، بيروت، ١٩٨٤ ق ١ ج ٥، ص ٢٢٢٦. سيشار الى هذا المرجع عند وروده هكذا: موسوعة علماء المسلمين.

٢. موسوعة علماء المسلمين، ق ١ ج ٥، ص ٢٢٢٥.

٣. ولد سنة ٩٠هـ. قال ابن عساكر: هو فقيه أهل دمشق ومفتيهم بعد الأوزاعي. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، تاريخ دمشق، مخطوطة الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية، رقم ١٠٤١، (تاريخ) جـ٢٥ ص ٥٧٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: تاريخ دمشق (مخ)؛ موسوعة علماء المسلمين، ق ١ ج ٢، ص ٨٦٨.

٤. البلاذري، أبو الحسين بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، فتوح البلدان ٣ ج، تحقيق صلاح الدين المنجد، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦. أنظر فيما يتعلق بالأخبار عن: هشام بن الليث الصوري، ج ١، ص ١٤٠، وعن هشام ابن الغاز الجرشي الصيداوي جـ١، ص ١٩٥، وعن سعيد بن عبد العزيز التنوخي البيروتي جـ١، ص ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٤، ١٨٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: البلاذري، فتوح.

٥. من أوائل المحدثين الكبار الذين أخرجتهم طرابلس، توفي حول منتصف القرن الثاني الهجري. وهو غير سميه: معاوية بن يحيى المكنى أبا روح الصدفي. أنظر: موسوعة علماء المسلمين، ق ١ ح ٥، ص ٢١٣٣.

٦. انظر روايته عن فتح طرابلس الشام في عهد الخليفة عثمان، في «تاريخ دمشق (مخ)، جـ١٦، ص ٧٦.

٧. موسوعة علماء المسلمين ق ١ ج ٢، ص ٩١٢، ومن أخباره: أنه نظر الى عمود من حجر عليه مكتوب كتاباً فلم يحسن قراءته، فتعلم بعد ذلك قراءة اليونانية فقرأه، فاذا عليه: بنى صيدا صيدون بن سام بن نوح. وهي رابع مدينة بنيت بعد الطوفان. انظر: معجم شيوخ ابن جميع الصيداوي، مخطوط ليدن، رقم ٣٧، ص ١٣٢، سيشار لهذا المصدر. معجم شيوخ ابن جميع، تاريخ دمشق مخ، جـ٢٨، ص ٦٢، جـ٤٢، ص ٢١٥ السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) الأنساب، اعتنى بنشره د. س. مرجليوث، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٠ ص ٣٥٨ أ. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: سمعاني.

٨. قال ابن عساكر: انه من أهل ساحل دمشق، من غزاة البحور. وهو أخو أبي خراسان الفارسي الذي ولاه سليمان بن عبد الملك غازية البحر، فغزا الى القسطنطينية. وذكره في رواية فتح طرابلس الشام على يد سفيان بن مجيب الأزدي وقال أنه من أهل طرابلس تاريخ دمشق (مخ)، جـ٣٦، ص ١٩٥، وأنظر ترجمته رقم ١٢١٢ في موسوعة علماء المسلمين ق ١ ج ٤، ص ١٥٩٥.

تاريخه[٩].

يضاف إلى هؤلاء: الامام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، الفقيه المرابط، البعلبكي المولد (٨٨هـ) البيروتي الوفاة (١٥٧هـ)، وقد نقل المؤرخون بعض الأخبار التي رواها، أو التي عايشها، أو شارك بوقائعها وأحداثها بنفسه، وكان في بعضها محوراً أساسياً يساهم في صنعها بمواقفه وآرائه. ولذا يصح أن نطلق عليه لقب «شيخ الاخباريين» في مدرسة بيروت[١٠].

وهناك بعض المصنفين الذين وصلتنا أسماؤهم ممن ينسبون إلى المدن اللبنانية، ولكنهم لم يصنفوا في فن التاريخ البحت، مثل: خيثمة بن سليمان القرشي الأطرابلسي (٢٥٠ ـ ٣٤٣هـ)[١١]: وقد وضع عدة مصنفات، منها واحد بعنوان «الرقائق والحكايات»[١٢] وصلنا منه الجزء العاشر فقط، ولا تزال أجزاؤه مفقودة. ومصنفات خيثمة ـ وان كانت حديثية الموضوع ـ فانها تخدم من جهة أخرى في تسجيل بعض اللمحات الفكرية المعاشة في مدينة طرابلس خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، وهذه اللمحات تفيد بشكل أو بآخر في التدوين التاريخي.

ومحمد بن أحمد بن محمد أبو الحسين المعروف بابن جميع الغساني الصيداوي،

---

٩. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، ١٠ج، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧. جـ٤، ص ٢٦٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الطبري. وهو يدعو والد الليث «سعد» بدل «تميم» فيقول: الليث ابن سعد الفارسي.

١٠. أنظر ترجمته المطولة في: موسوعة علماء المسلمين ق ١ ج ٣، وكان له ثلاثة كتاب يملي عليهم حديثه وفتاويه وأخباره وهو: أبو سعيد عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين الدمشقي البيروتي، والهقل بن زياد الشامي السكسكي البيروتي، وأبو الفيض يوسف بن السفر الدمشقي. وكان الأوزاعي من أوائل الذين صنفوا الكتب في الفقه ومسائله، فاحترقت كتبه في زلزال ضرب بيروت وساحل لبنان في سنة ١٣٠هـ. فأتى اليه رجل بنسخ لتلك الكتب وقال له: أصلحها بيدك. فما عرض الأوزاعي لشيء منها حتى مات. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، تهذيب التهذيب، ١٢ج، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، ١٣٢٥هـ ـ ١٣٢٧هـ. جـ٦، ص ٢٤٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: تهذيب. ووضع الوليد بن مسلم عن الأوزاعي كتاباً في السير.

وأخبار الأوزاعي التي يمكن أن تؤلف صفحة تاريخية من تاريخ لبنان مبثوثة في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي، وفتوح البلدان للبلاذري، وتاريخ دمشق لابن عساكر. والبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الاسلام، وسير أعلام النبلاء للذهبي وتهذيب الأسماء واللغات للنووي، والمنتخب من كتاب ذيل المذيل لابن جرير الطبري، وكتاب الأموال لابن سلام، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وحلية الأولياء لأبي نعيم، وغيره.

١١. موسوعة علماء المسلمين ق ١ ج ٢. ص ٧٧٧، ترجمة رقم ٥٧٧.

١٢. نشرناه مع أجزاء أخرى في فضائل الصحابة وغيره في كتاب بعنوان: من حديث خيثمة بن سليمان القرشي الأطرابلسي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠.

كبير محدثي صيدا ومسندها (٣٠٥ ــ ٤٠٢هـ)(١٣) وله:

ــ معجم شيوخه الذين سمع منهم وأخذ عنهم في البلاد التي رحل اليها، و يظهر أن جولته في «لبنان» اقتصرت على مدن الساحل فقط، فأخذ على الشيوخ في بلده صيدا وفي صور، الصرفند، بيروت، طرابلس، وعرقه، ولم يدخل بعلبك، رغم أنه طوف في البلاد ما بين مصر و بلاد فارس مروراً بالحجاز والعراق و بلاد الشام وفلسطين(١٤).

ــ معجم تلاميذه أو سماعاتهم، وهو مصنف لم نقف على اسمه الصحيح، غير أنه يتضمن سماعات الخلق الذين سمعوا من ابن جميع، و يظهر أنه كان يتألف من عدة أجزاء كانت موجودة عند حفيده أبي الحسين أحمد بن الحسن، رآها أبو محمد النخشبي(١٥).

ومحمد بن علي أبو عبد الله الصوري الحافظ (٣٧٧/٦ ــ ٤٤١هـ)(١٦): وضع كثيراً من المصنفات في مصطلح الحديث، وجرح وتعديل الرجال وطبقاتهم وأنسابهم، وقد استفاد منها تلميذه المؤرخ المحدث الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي(١٧) (توفي ٤٦٣هـ).

والحسين بن محمد بن أحمد بن جميع الصيداوي المعروف بالسكن (توفي ٤٣٧هـ)(١٨) كتب بخطه أحاديث اختارها من سماعاته عن أبيه وجده وجميع شيوخه، وصلنا منها جزء واحد(١٩).

وأبو طاهر الصوري(٢٠): له مصنف جمع فيه أسماء شيوخه من الطرابلسيين الذين

١٣. موسوعة علماء المسلمين ق ١ ج ٢، ص ١٦٦٥، ترجمة رقم ١٢٧٨.

١٤. أنظر دراسة لنا بعنوان: «المحدث الزاهد الحافظ ابن جميع الصيداوي مسند صيدا» في مجلة الفكر الاسلامي، بيروت، العدد ٥، أيار/ مايو ١٩٧٩. ص ١٠٨. وما بعدها. ولدينا نسخة مصورة من «معجم الشيوخ» عن مخطوطة ليدن قمت بتحقيقها ونشرتها مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤.

١٥. السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) الأنساب، ١٠ج، تحقيق محمد عوامة، منشورات محمد أمين دمج، بيروت ١٩٨٠ ــ ١٩٨١. ج ٨، ص ١١٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: السمعاني، الأنساب.

١٦. موسوعة علماء المسلمين، ق ١ ج ٤، ص ١٩٣٥ ترجمة رقم ١٥١٣.

١٧. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم الأدباء، ٢٠ح في ١٠م، نشره مرجليوث، القاهرة، ١٩٣٠، جـ١، ص ٢٤٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الحموي، معجم.

١٨. موسوعة علماء المسلمين، ق ١ ج ٢، ص ٧١٦ ترجمة ٤٩٩.

١٩. نشرناه في مجلة «الفكر الاسلامي» بيروت، العدد ٩، أيلول/ سبتمبر ١٩٧٩، ص ٢٤ وما بعدها، بعنوان «من تراث لبنان الاسلامي».

٢٠. ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، ٢ ج، مصورة بمعهد المخطوطات في القاهرة، رقم ٩٢٩ (تاريخ) جـ١، ١٦٠أ. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن العديم بغية.

لقيهم وتتلمذ عليهم. وقد اطلع عليه غيث بن علي الصوري ونقل عنه(٢١). وهو من المصنفات المفقودة.

وأبو الفرج غيث بن علي بن عبد السلام الأرمنازي الصوري (٤٤٣ ــ ٥٠٩هـ)(٢٢) كان خطيباً ومحدثاً في المسجد الجامع بصور، وضع للمدينة تاريخاً ولكنه لم يتمه(٢٣). وقد وصلت نسخته المخطوطة الى الحافظ ابن عساكر الدمشقي فنقل عنه في «تاريخ دمشق»(٢٤). ومن تلك النقول نعرف أن كتاب غيث الصوري لم يكن كتاباً في التاريخ بالمعنى الصحيح، وإنما كتاب تراجم وتعريف بالشيوخ الذين لقيهم أو الذين نزلوا صور واجتمع بهم من فقهاء ومحدثين وأدباء وشعراء.. وهو يفيد في تصو ير الحياة العلمية في ساحل لبنان، وفي مدينة صور على وجه الخصوص في القرن الخامس الهجري.

والمحنك أبو عبد الله محمد بن الحسن القاضي المرتضى (توفي ٥٤٩هـ): وهو طرابلسي الأصل، دخل في خدمة الخلافة الفاطمية وكتب «تاريخ خلفاء مصر»(٢٥)، وهو

٢١. شاكر مصطفى «مدرسة الشام التاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده»
بحث القي في الاحتفال بذكرى ابن عساكر في دمشق، ١٩٧٩. ص ٣٩٠
سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: مدرسة الشام.

٢٢. موسوعة علماء المسلمين ق ٢ ج ٣ (حرف الغين)، وهو من مواليد صور وليس من مواليد أرمناز التي عند حلب، كما يقول الدكتور شاكر مصطفى وهو نفسه الذي ورد ذكره في «معجم الأدباء» جـ٤، ص ١٥. وليس غيره كما يقول أيضاً الدكتور شاكر مصطفى. (انظر بحثه: مدرسة الشام التاريخية، ص ٣٩٨ بالمتن والحاشية). و يضيف الدكتور نفسه اسم أحد رجال الحديث إلى قائمة المؤرخين في مدرسة الشام هو: (ابن محبوب أبو الحسين علي بن عبد الله بن محبوب الطرابلسي (ت ٥٢٢هـ/١١٢٨م) نكره السلفي في «معجم السفر» أنه (صنف تو يريخاً لطرابلس وقفت عليه، وقد كتب عني مؤلفه كثيراً وحدثني به وانتخبت منه ما استغربته) البحث نفسه، ص ٣٩٩. نقلا عن معجم السفر مصورة دار الكتب المصرية، رقم ٣٩٣٢ تاريخ، ص ٢٩٩، السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التواريخ، نشره صالح أحمد العلي في كتاب «علم التاريخ عند المسلمين» لفرانز روزنثال، طبعة المثنى، بغداد، ١٩٦٣. ص ٦٣٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: السخاوي، الاعلان. ونقول: ان محبوب هذا من أهل طرابلس الغرب وليس طرابلس الشام، كما يؤكد ذلك ياقوت الحموي الذي ذكره في مادة «طرابلس» الافريقية انظر: الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان ٦، دار البلدان وقد ذكر الدكتور صالح أحمد العلي اسم «عنيسة بن علي» بدلا من «غيث بن علي» وهو تصحيف واضح. انظر: السخاوي، الاعلان، ص ٦٣٥ (ملحوظة رقم ٢٦ بالحاشية) وهو الذي ذكر نأه غير غي بن علي الصوري الذي كان مدرساً وزميلا للخطيب البغدادي ونقل عنه هذه الملحوظة شاكر مصطفى دون تمحيص. فاقتضى منا التنو يه.

٢٣. الحموي، معجم البلدان، جـ١، ص ١٥٨، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٤٠٠، تاريخ دمشق (مخ) جـ٣٤، ص ٣٧٨، السمعاني، ٢٧ أ.

٢٤. أنظر على سبيل المثال لا الحصر: تاريخ دمشق (مخ)، جـ٧، ص ٣٨٩، جـ١٠، ص ٢٥، ٢٧٦، جـ٢٣، ص ٣٥٠، جـ٢٩، ص ١٠٢، جـ٣١، ص ٤٨٣، جـ٣٤، ص ٣١٤، جـ٣٥، ص ٥٤٠، جـ٣٩، ص ١٣، ١٤، جـ٤١، ص ١٦٤.

٢٥. مدرسة الشام التاريخية ص ٤٠١ ــ ٤٠٢.

كتاب مفقود حتى الآن، و يظهر من عنوانه أنه خاص بتاريخ الخلفاء الفاطميين في مصر.

ثانياً: إن حركة التدو ين لم تظهر واضحة الا في أواخر القرن الثاني الهجري، و بعد قيام الدولة العباسية، وقد استأثرت أخبار الخلافة والخلفاء في بغداد باهتمام المؤرخين، فدونوا يوميات الخليفة، وأخبار عاصمة الخلافة، وأهملوا أخبار وحوادث المدن الأخرى الا بالنزر اليسير، خصوصاً النائية منها. ولا شك أن بعد المسافات وصعوبة الاتصالات مع العاصمة المركزية في ذلك الوقت ساهمت في عدم وصول المعلومات والأخبار بشكل سريع، و بالتالي لم تأخذ طريقها في التدو ين التاريخي، ولعل المؤرخين المسلمين كانوا يتحرجون في تدو ين أخبار المدن البعيدة بدافع من الحيطة والحرص على توخي الصدق في تلقي المعلومات التي قد يشكون في أمانة ناقلها اذا لم يتوافر على نقلها جماعة من الثقاة، أو إذا لم تأت في مراسلات رسمية.

ثالثاً: «ان «لبنان» بحدوده الجغرافية المتعارف عليها الآن سياسياً، لم يكن خلال الفترة التي ندرسها إلا إقليماً طبيعياً من بلاد الشام، تابعاً للسلطة المركزية في دمشق تارة (العهد الأموي)، وللسلطة المركزية في بغداد تارة (العهد العباسي) وللسلطة المركزية في الفسطاط، والقطائع، ثم القاهرة تارة بعد أخرى (العهد الطولوني، العهد الاخشيدي، ثم العهد الفاطمي)، ولهذا كانت عملية التاريخ لمدنه «تصنع» خارج «حدوده» أي أنه كان «بلد» «استيراد» للمدونات التاريخية، وليس «بلد» «تصدير»، وإن كان هذا «العجز» في «التبادل» قد أخذ يميل الى التحسن نوعاً ما بعد حركة الحروب الصليبية، بظهور عدد من المؤرخين «اللبنانيين»، أمثال:

قطب الدين موسى اليونيني ــ من بلدة يونين البقاعية (توفي ٧٢٦ هـ)(٢٦) و برهان

٢٦. ولد سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م)، قرأ عليه الحافظ الذهبي بدمشق و بعلبك. وله: ذيل على مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، نشر قسم منه و بقي القسم الآخر مخطوطاً. ابن رجب الحنبلي، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م)، ذيل طبقات الحنابلة ٢ج، وقف على طبعه وتحقيقه محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٢. جـ٢، ٣٧٩ ــ ٣٨٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن رجب، ذيل؛ الحسيني، أبو المحاسن محمد بن علي، من ذيول العبر، الكو يت، د. ت. ص ١٤٥ ــ ١٤٦. سيشار لهذا المصدر الحسيني، من ذيول؛ ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية ١٤ج في ٧م، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٦، جـ١٤، ص ١٢٦ سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن كثير، البداية؛ ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ج، تحقيق محمد سعيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦، جـ٥، ص ١٥٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن حجر، الدرر؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، مخطوطة بدار الكتب المصرية، رقم ١١١٣ تاريخ، جـ٣، ص ٣٧٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: المنهل الصافي.

الدين ابراهيم بن عمر الرباط البقاعي(٢٧) وصالح بن يحيى البحتري البيروتي(٢٨) وأحمد بن سباط العاليهي ــ من بلدة عاليه بجبل لبنان(٢٩)، وغيرهم ممن جاء بعدهم.

رابعاً: إن المدلول الجغرافي لكلمة «لبنان» لم يكن واضحاً ومحدداً عند المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين(٣٠). وكانت الرقعة الجغرافية تضيق وتتسع حسب مفهوم كل منهم. وهذا مدعاة للمعاناة في البحث لارتباط الاطار الجغرافي بالفعل التاريخي. وكثيراً ما يرد في المصادر العربية لفظ: ساحل الشام، ساحل دمشق. ففي اللفظ الأول يشكل «لبنان» الجزء الجنوبي من ساحل الشام. واذاكانت الأخبار تتعلق ب «ساحل الشام» فانها قد تشمل «لبنان» أو جزءاً منه، أو أنها لا تتناوله مطلقاً.

أما إذا كانت الأخبار تتعلق ب «ساحل دمشق»، فهي تتناول «لبنان» أو جزءاً منه بشكل مؤكد. فتعبير «ساحل دمشق» في كتابات المؤرخين يتناول جملة المدن والثغور الواقعة بين عرقة في الشمال وعدلون في الجنوب، وما يوازيهما من البلاد في الداخل، أما الصرفند، وما يليها من الجنوب وما يوازيها، فمن أعمال «ساحل الأردن» و بمعنى آخر وأوضح، فان كلا من: عرقة وطرابلس وأنفة والبترون وجبيل وجونية و بيروت وصيدا وعدلون (على الساحل) و بعلبك والبقاع (في الداخل) وجبل لبنان (في الوسط) من جند دمشق. وأن كلا من: الصرفند وصور (على الساحل) وتبنين والنبطية وجزين، وجبل عاملة (في الداخل) من جند الأردن.

خامساً: ان عدداً وافراً من المؤرخين نزلوا «لبنان» وأخذوا عن شيوخه، ورغم ذلك

٢٧. ولد سنة (٨٠٩هـ/١٤٠٦م) وتوفي (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) وهو من أهل قرية خربة روحا بالبقاع. له ما يربو على خمسين مصنفاً، أهمها في التاريخ «عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران» وهو لا يزال مخطوطاً. أنظر: السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق فليب حتي، المطبعة السورية الأمريكية، نيو يورك، ١٩٢٧. ص ٢٤، ٢٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، نيو يورك، ١٩٢٧. ص ٢٤، ٢٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: نظم العقيان؛ القنوجي، التاج المكلل ص ٣٥٨؛ البغدادي اسماعيل بن محمد، هدية العارفين ــ اسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ٢ج، استنبول، ١٩٥١ ــ ١٩٥٢، أعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى، بغداد ج ١، ص ٢١، ٢٢. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: هدية العارفين؛ السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٠٢هـ/٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ج، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د. ت. جـ٥، ص ٤٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الضوء اللامع.

٢٨. من مؤرخي القرن التاسع الهجري، له «تاريخ بيروت» مطبوع.

٢٩. له كتاب في التاريخ لا يزال مخطوطاً، نسخته في مكتبة الفاتيكان، منه نسخة مصورة بالجامعة الأمريكية في بيروت.

٣٠. أنظر حول الموضوع: أسد رستم، آراء وأبحاث، منشورات الجامعة الأمريكية بيروت، ١٩٦٧. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: أسد رستم، آراء.

فان معلوماتهم التاريخية التي دونوها عنه لا تزيد على ذكر أسماء الشيوخ الذين أخذوا عنهم. فها هو ابن جرير الطبري المؤرخ الكبير، ينزل بيروت، و يحفظ القرآن الكريم بالقراءات على المقرىء العباس بن الوليد بن مزيد البيروتي (١٦٩ ــ ٢٧٠هـ)(٣١)، وحين صنف تاريخه الضخم، أغفل بشكل يدعو للاستغراب أي خبر عن بيروت، بلد شيخه واستاذه، فلم يتعرض لها على الاطلاق، كما لم يذكر شيئاً عن فتح المسلمين للمدن اللبنانية رغم أنه تتبع حركة الفتوحات الاسلامية في مختلف أقطارها واتجاهاتها.

وهذا مثال واحد من أمثلة كثيرة يمكن أن نسوقها في هذا المجال. ومن جهة أخرى فان هناك مجموعة مفقودة من المصنفات الهامة التي نعتقد أنها لو وجدت، ستمدنا ببعض المعلومات التاريخية القيمة عن «لبنان» ومنها:

ــ للمسعودي (المتوفى ٣٤٦هـ) كتاب «أخبار الزمان ومن إباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران»، وهو كتاب لم يطبع منه الا جزء يسير ولا يزال معظمه مفقوداً. و «الكتاب الأوسط»، وكتاب «فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف»، وكتاب «نظم الجواهر في تدبير الممالك والعساكر»، وكتاب «الاستذكار لما جرى في سالف الأعمار»، وغيرها من الكتب(٣٢). والمسعودي هو أول مؤرخ مسلم يتحدث عن مواطن «الموارنة» في القرن الرابع الهجري في «التنبيه والاشراف»(٣٣) وهو ينفرد بين جميع المؤرخين المسلمين بالاشارة الى غزوة «ليو الطرابلسي» أمير البحر الى مدينة سالونيكا اليونانية(٣٤). و يعرف به أنه صاحب طرابلس حين زار ميناءها بعد سنة (٣٠٠هـ)(٣٥) ولذا نعتقد أن هناك معلومات لا تقل أهمية عن هذه، موجودة في واحد من كتبه المفقودة.

ــ ولأبي الحسين ادريس بن ابراهيم الواعظ البغدادي، كتاب «أنس الجليس ومسرة الأنيس»: يروي فيه عن خيثمة بن سليمان كبير المحدثين الطرابلسيين، وعن

٣١. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، ٢ح، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٩، جـ١، ص ٢١٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده، معرفة القراء الكبار، الحموي، معجم، جـ١٨، ص ٥٢، تاريخ دمشق (مخ)، جـ١٩، ص ٥٧٩.

٣٢. انظر: قائمة بأسماء مصنفات المسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، في مقدمة كتابه «أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان».

٣٣. طبعة دار التراث، بيروت، ١٩٦٨. ص ١٣١.

٣٤. انظر تفاصيل غزوته: في كتابنا، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، ج ١، طبعة دار البلاد، طرابلس، ١٩٧٨، ص ١٤٣، وما بعدها. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: تاريخ طرابلس.

٣٥. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بيلا، ٧ج، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٥ ــ ١٩٧٩، جـ١، ص ١٤٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: المسعودي، مروج.

خراسان بن عبيد الله الأطرابلسي، وهو والد أمير طرابلس الذي مدحه أبو الطيب المتنبي بين سنتي (٣٢٥ ــ ٣٣٠هـ)(٣٦)، وعن أبي القاسم علي بن محمد الصوري،(٣٧) كما يروي عن غيرهم من الشيوخ. وقد ذكره ابن عساكر، وقال: ان الخطيب لم يذكره في «تاريخ بغداد»(٣٨).

ــ ولأبي الفتح الكراجكي محمد بن علي بن عثمان: «رحلة أشار اليها الحافظ ابن حجر، ذكر فيها مباراة الخطابة التي جرت بين الخطيب البغدادي المؤرخ والحسين بن بشر ــ قاضي طرابلس والناظر على دار العلم بها(٣٩). والكراجكي من العلماء الفلاسفة ومن المصنفين المكثرين، وضع عدة مصنفات بناء لطلب أعيان: طرابلس(٤٠)، وصيدا(٤١)، وصور(٤٢) وتوفي في هذه الأخيرة سنة (٤٤٩هـ)(٤٣). ولو وصلتنا «الرحلة» لوقفنا منها على معلومات غزيرة، ولا شك، عن مدن لبنان الساحلية في النصف الأول من القرن الخامس الهجري.

ــ ولأمين الدولة أبي طالب عبد الله بن عمار، صاحب طرابلس: كتاب يعرف

٣٦. المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، ديوان المتنبي، تحقيق عبد الوهاب عزام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٤، ص ٢١٦، ص ٢١٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ديوان المتنبي؛ تاريخ طرابلس، جـ١، ص ١٧٩.

٣٧. موسوعة علماء المسلمين، ق ١، ج ٣.

٣٨. موسوعة علماء المسلمين، ق ١، ج ١، ص ٤٥٣ ترجمة رقم ٢٦٧.

٣٩. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م)، لسان الميزان، ٦ ج، حيدر أباد الدكن، ١٣٢٩هــ ١٣٣١هـ. جـ١، ص ٢٧٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن حجر، لسان

٤٠. ألف فيها: «عدة البصير في حج يوم الغير» و «نهج البيان» لأبي الكتائب ابن عمار، ومختصر طبقات الوارث» وهي رسالة للمبتدئين في طرابلس و «البستان» في الفقه، للقاضي أبي طالب ابن عمار، و «تلقين أولاد المؤمنين» في كراستين و «الاستطراف في ذكر ما ورد من الفقه في الانصاف»، الفه لأبي الفتح عبد الحاكم قاضي طرابلس و «مسألة البيان عن جمل اعتقاد أهل الايمان» وهي رسالة في عقائد الامامية.

٤١. ألف فيها: «المجالس في مقدمات علم الكلام» الفه لصارم الدولة ذي الفضيلتين؟ و «الزاهد في آداب الملوك» لصارم الدولة أيضاً، و «الايضاح عن أحكام النكاح» ألفه بأمر الأمير ذخر الدولة سنة ٤٤١هـ، «انتقاع المؤمنين بما في أيدي السلاطين» ألفه لأهل صيدا، و «تسلية الرؤساء»، ألفه للأمير ناصر الدولة و «المنهاج في معرفة مناسك الحاج» ألفه لصارم الدولة ذي الفضيلتين.

٤٢. ألف فيها: «الأصول في مذهب آل الرسول» في سنة ٤١٦هـ و «روضة العابدين ونزهة الزاهدين» من ثلاثة أجزاء في الفقه ألفه لابنه موسى، و «التعريف بوجوب حق الوالدين» وصيته الى ولده (مطبوعة بطهران، ١٣٧هـ).

٤٣. موسوعة العلماء المسلمين، ق ١، ج ٤، ص ١٩٤٩ ترجمة رقم ١٥١٤.

ب «جراب الدولة»(٤٤)، يظهر أنه فقد بعد احتلال الصليبيين لطرابلس واحراقهم لدار علمها ومكتبتها التي ذاع صيتها في عالم العصر الوسيط(٤٥).

ـ ولابن أبي طي يحيى بن حامد الحلبي (٥٧٥ ـ ٦٣٠هـ) عدة مصنفات في التاريخ، ولكنه يكاد يكون المؤرخ الوحيد الذي خانه الحظ حيث فقد جميع انتاجه في ظروف نجهلها، ربما تعود لتشيعه. ومن مصنفاته التي نعتقد أنها تتضمن معلومات هامة عن تاريخ «لبنان»: معادن الذهب في تاريخ الملوك والخلفاء وذوي الرتب، وهو في عدة مجلدات، و«حوادث الزمان على حروف المعجم «في خمسة مجلدات، و«ذيل معادن الذهب» وهو تتمة لتاريخ الملوك والخلفاء، و«سلك النظام في تاريخ الشام»، و«تراجم رجال الأدب والشعراء»، و«أسماء رواة الشيعة ومصنفيها»، و«اشتقاق أسماء البلدان»(٤٦) ونحن نرى أن مصنفات ابن أبي طي، لو وصلتنا لأفدنا منها بثروة من المعلومات التي انفرد بها عن المؤرخين المعاصرين له وخاصة فيما يتعلق بالعصر الفاطمي، نظراً لتشيعه، وأن المعلومتين اللتين وصلتا الينا ـ عن طريق المؤرخين المتأخرين الذين نقلوا عنه، حول مناظرة ابن بشر والخطيب البغدادي في طرابلس، ووصفه الدقيق لعملية احراق مكتبة دار العلم على يد الصليبيين سنة (٥٠٢هـ) ـ تدلان على غزارة المادة التاريخية بالنسبة للمدن اللبنانية في العصر الفاطمي.

وفي واقع الأمر، اذا شئنا أن نسترسل في تعداد المعوقات التي تواجه الباحث للتاريخ للمدن «اللبنانية»، لطال بنا الأمر، بحيث يخشى معه الخروج عن الموضوع الأساسي وقد آثرنا أن نركب المركب الصعب، رغم المعاناة من ضحالة المادة التاريخية المتوفرة في المصادر العربية القديمة، فنتناول حركة الفتح الاسلامي للمدن اللبنانية.

٤٤. ابن شداد، عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م).
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ٢ ج . تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق، ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢، جـ١ ص ١٠٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن شداد، الأعلاق؛ ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م)، تاريخ الدول والملوك، الأجزاء ٧ ـ ٩، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٦ ـ ١٩٤٢. جـ٨، ص ٧٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن الفرات؛ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ ج، دار الكتاب اللبناني بيروت، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨، جـ ٥، ٨٦٥، سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن خلدون، العبر.

٤٥. أنظر: دراستنا المسهبة عن مكتبة بني عمار في كتابنا «الحياة الثقافية في طرابلس خلال العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٣. ص ٣٩ وما بعدها. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: عمر، الحياة الثقافية.

٤٦. مدرسة الشام التاريخية، ص ٣٦٧، ص ٣٦٨.

فتح بعلبك:

يبدأ تاريخ الاحتكاك الحربي بين العرب المسلمين وأهل المدن اللبنانية في وقت مبكر، يسبق فتح المسلمين لدمشق، وكان ذلك الاحتكاك مع أهل مدينة بعلبك، و بالتحديد عند حضور خالد بن الوليد من العراق الى الشام لنجدة المسلمين في فلسطين سنة (١٣هـ) و بعد خروج سرايا المسلمين الثلاث بقيادة:

عمرو بن العاص: الى فلسطين ومصر، و يزيد بن أبي سفيان، الى بلاد الشام، وشرحبيل بن حسنة: الى الأردن. لقد عبر خالد بادية الشام عبر مدينة تدمر حيث أخذها صلحاً، ثم مر في طريقه على «حوارين»، من جبل «سنير» الواقع بين حمص و بعلبك، فتحصن أهلها منه، فأغار عليهم واستاق مواشيهم وقتل رجالهم، وأقام عليهم أياماً، فبعثوا الى من حولهم ليمدوهم، فجاءهم المدد من بعلبك و بصرى الشام(٤٧). فلما رأى خالد ذلك صف الناس ثم تجرد في مائتي فارس، وحمل على أهل بعلبك، وهم أكثر من ألفي رجل، فقصف بعضهم على بعض وقتل منهم مقتلة عظيمة، وما وقفوا له ساعة حتى انهزموا ودخلوا الحصن الى أن انتهى أمرهم بالصلح(٤٨).

وفي السنة التالية (١٤هـ). وفيما كان المسلمون يحاصرون دمشق، وصلت نجدة من جيش الروم في أنطاكية الى بعلبك لمساعدة أهل دمشق، تتألف من عشرة آلاف رجل عليهم «درنجاران»، كل «درنجار»(٤٩) على خمسة آلاف. وما ان دخلوا بعلبك حتى علموا بسقوط دمشق بيد المسلمين، فلبثوا مقيمين في بعلبك، بانتظار تعليمات الامبراطور هرقل.

وكان أبو عبيدة بن الجراح ـ القائد العام ـ حين منازلته لدمشق، أمر عمرو بن العاص أن يسير عبر الأردن الى فلسطين، فخرج عمرو فواقع أهل الأردن وفلسطين،

٤٧. البلاذري، فتوح، جـ١، ص ١٣٢؛ الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م)، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ٢ ج، مطبعة عثمان عبد الرزاق، القاهرة، ١٣٣هـ، جـ٢، ص ٢٥٨. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: الديار بكري، تاريخ.

٤٨. الأزدي، محمد بن عبد الله (ت ق ٢هـ/ ٨ق م)، فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر، سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٧٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الأزدي، فتوح؛ البلاذري، فتوح، جـ١، ص ١٣٢؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٢٠ ج، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وآخرون، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٥٥ ـ ١٩٧٥، جـ١٩، ص ١١٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: النويري، نهاية.

٤٩. وردت «الديرجانية» بصيغة الجمع في «فتوح الشام» المنسوب للواقدي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) فتوح الشام، ٢ج، مكتبة المحتسب، عمان د. ت. جـ١، ص ٧٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الواقدي، فتوح. وردت «طرنجار» (بالطاء) وهو قائد ألف (أنظر نبذ من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، لقدامة بن جعفر (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م) تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١، ص ٢٥٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: قدامة، الخراج.

وأقام عليهم القيامة، وضيق عليهم أشد التضييق حتى تضاعف رعبهم وخوفهم على مدنهم، وعندما وصلتهم أخبار سقوط دمشق، بعثوا الى هرقل، وهو في أنطاكية، لينجدهم، فأرسل الى الجيش الذي كان يرابط في بعلبك ليخرج الى فلسطين. ولقد شعر عمرو بن العاص بخطورة الوضع عندما رأى تجمع الروم من أنحاء البلاد وتصميمهم على التصدي لقواته، ولذا بعث الى أبي عبيدة يطلعه على خطورة الموقف.

كان أبو عبيدة على نية الخروج لمنازلة حمص، حين وصله كتاب عمرو، فاستشار أصحابه فيما يفعل، فأشار عليه يزيد بن أبي سفيان بامداد عمرو بالجند والثبات على قتالهم، وأن يقيم أبو عبيدة في مكانه فلا يقصد حمص. ولكن خالداً أشار عليه أن ينظر ما يصنع الجيش الذي في بعلبك فان هم خرجوا منها وساروا الى اخواننا سرت الى اخوانك فلقيتهم بجماعة الناس، وان هم أقاموا ولم يبرحوا أمددت عمرواً وأنفذت الى هؤلاء من يقاتلهم، وأقمت أنت. بمكانك...»(٥٠). فبعث أبو عبيدة شرحبيل للحاق بعمرو، وطمأنه بأنه سوف يبعث الى بعلبك من يشغل الجيش المرابط فيها عن الخروج منها. وعزم أبو عبيدة أن يخرج بنفسه اليها، ولكن خالداً تقدم لمنازلتها على رأس خمسة آلاف فارس، بعد أن أوصاه أبو عبيدة بقوله: «... يا خالد، اني أوصيك بتقوى الله، واذا أنت لقيت القوم فلا تناظرهم، ولا تطاولهم في حصونهم، ولا تذرهم يأكلون و يشربون و ينتظرون أن تأتيهم أمدادهم فاذا لقيتهم فقاتلهم، فانك ان هزمتهم انقطع رجاؤهم، وسقط في خلدهم، وساء ظنهم. وان احتجت الى مدد فأعلمني حتى يأتيك من المدد حاجتك. وان احتجت أن آتيك بنفسي أتيتك ان شاء الله»(٥١).

وقبل أن يصل خالد الى بعلبك، كان الامبراطور هرقل قد أرسل الى الجيش فيها يأمره باللحاق بالروم المحاصرين في بيسان، فخرج الجيش ومعه جمع وفير من أهالي بعلبك ممن هم على دينهم، وانضم اليهم عدد وفير من نصارى حمص «غضباً لدينهم وشفقة من أن تفتح مدينتهم كما فتحت مدينة دمشق».

وعندما وافى خالد بعلبك، كان مجموع ما خرج منها أكثر من عشرين ألف رجل، فأغار على نواحيها وقتل من أدرك من الرجال وسبى من وجد من الذرية واستاق معه من الأغنام والبقر والمتاع شيئاً كثيراً. وعاد الى دمشق ليخبر أبا عبيدة. بخروج الجيش من بعلبك الى بيسان، فأرسله أبو عبيدة نجدة لعمرو، ثم لحق به بعد أن استخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق، فتحول الروم الى «فحل» من أرض الأردن، فجاءهم المسلمون بجموعهم، وانضمت اليهم القبائل العربية النازلة في تلك النواحي من: لخم وجذام وغسان وعاملة والقين وقضاعة، فكثر عددهم، وراح أهل «فحل» من النصارى الوطنيين يراسلون

٥٠. الأزدي، فتوح، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

٥١. نفس المصدر، ص ١٠٩.

المسلمين، فيقدمون رجلا و يؤخرون أخرى، و يقولون:

«... يا معشر المسلمين، أنتم أحب الينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا. وأحسن ولاية علينا، ولكنهم قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا»(٥٢).

وأقام المسلمون يحاصرونهم مدة من الوقت حتى أخذوا «فحل» صلحاً، أما أرض الأردن وقراها فأخذوها عنوة.

عاد أبو عبيدة وخالد الى دمشق، ومنها خرجا الى أرض البقاع و بعلبك(٥٣)، فغلب خالد على أرض البقاع، واتجه شمالاً حتى نزل قبلي بعلبك، فخرج اليه رجال من أهلها، فأرسل اليهم نحواً من خمسين فارساً، منهم: «ملحان بن زياد الطائي»(٥٤) و «بنان بن حازم القيسي»(٥٥) و «قنان بن دارم العبسي»(٥٦) فحملوا عليهم وأجبروهم على الانكفاء والاحتماء في حصن المدينة(٥٧).

و يبدو أن خالد بن الوليد كان يصطحب معه ابنه عبد الرحمن عند حصار بعلبك، حيث قال فيه الشاعر كعب بن جعيل بعد موته:

ألا تبكي وما ظلمت قريش ... بأعوال البكاء على فتاها
فلو سئلت دمشق وبعلبك ... وحمص: من أباح لها حماها

٥٢. الأزدي، فتوح، ص ١٤٠.

٥٣. اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن واضح (ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م)، تاريخ اليعقوبي، ٢ج، تقديم وتعليق محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف ١٩٦٤، جـ٢، ص ١٤١. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: اليعقوبي،.تاريخ، ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ دمشق الكبير، ٧ج، تهذيب عبد القادر بدران، ط٢، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩، جـ١، ص ١٦٠. سيشار لهذا المصدر، ابن عساكر، تهذيب.

٥٤. ضبطه الدكتور المنجد في فتوح البلدان، جـ١، ص ١٥٥ هكذا: «ملحان ابن زيار» بالراء والصحيح «زياد» بالدال. ذكر الأزدي أنه أخا عدي بن حاتم لأمه، وأنه وفد على أبي بكر في نحو ألف رجل من قومه من طيء يعرض عليه الجهاد معه فألحق بجيش أبي عبيده في الشام. قال: «فشهدت معه مواطنه التي شهدها كلها، لم أغب عن يوم منها» واسم أبيه «زياد» ورد في «تهذيب التهذيب» لابن حجر جـ٣، ص ٣٩٠، وهو يروي عن أبي هريرة. روى عنه شمرة بن حبيب الزيات.

٥٥. لم أجد له ترجمة، وأظن أنه هو «قنان» الآتي بعده، ابن عساكر، تاريخ جـ١، ص ٢٧٤.

٥٦. أظن أن «بنان» و «قنان» هما شخص واحد وقع التحريف في اسمه واسم أبيه ونسبه و «بنان» هو «قنان» و «حازم» هو «دارم» والقيسي هو «العبسي» وكان يعد من الفرسان المذكورين ذكره الأزدي، ص ٢٤٠ وابن سعد في الطبقة الرابعة، ابن حجر العسقلاني، الاصابة في تمييز الصحابة، ٤ج، مكتبة المثنى، بغداد، ١٣٢٨هـ. جـ٣، ص ٢٤١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حجر، الاصابة.

٥٧. الأزدي، فتوح، ص ١٤٤.

فسيف الله أدخلها المنايا   وهدم حصنها وحوى قراها (٥٨)

وبعث أهل بعلبك في طلب الصلح، فأعطاهم أبو عبيدة الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وكتب لهم على يد «عبد الله بن رومان» (٥٩) كتاباً، ذكر ابن المغيرة عن أبيه: أن أبا عبيدة صالحهم فيه على أنصاف منازلهم وكنائسهم ووضع الخراج (٦٠).

وأورد كل من البلاذري وابن عساكر نصين مختلفين حول ذلك الصلح، نوردهما على التوالي:

★ النص عند البلاذري: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك، رومها وفرسها وعربها، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم، داخل المدينة وخارجها، وعلى أرحائهم، وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا، ولا ينزلوا قرية عامرة، فاذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا الى حيث شاؤوا. ومن أسلم منهم فله مالنا وعليه ما علينا. ولتجارهم أن يسافروا الى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج. شهد الله، وكفى بالله شهيداً (٦١).

٥٨. ومناسبة هذه الأبيات ما زعموا أن معاوية قال لكعب بن جعيل بعد موت عبد الرحمن ـ وكان مداحاً له ـ: «ليس للشاعر عهداً قد كان عبد الرحمن لك صديقاً، فما مات نسيته» قال: «ما فعلت ولقد قلت فيه بعد موته» ثم ذكر الأبيات.... الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب (ت ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م)، نسب قريش، نشره ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦. ص ٣٢٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الزبيري، نسب.

٥٩. ابن عساكر، تهذيب، جـ٧، ص٣٩٦، وفي «الاصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلاني، ٨ج، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢، جـ٥، ص٨٨، ترجمة رقم ٦٣١٨، سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الاصابة طبعة مصر، «عبد الله بن أبي رومان الكاتب، قال ابن عساكر: أدرك عهد النبي وشهد فتح بعلبك وكتب الصلح لأهلها. ذكره ابن عائذ في المغازي عن الوليد بن مسلم عن اسماعيل بن عياش».

٦٠. ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ١٦٠.

٦١. بلاذري، فتوح، جـ١، ص ١٥٤، خليفة بن خياط (ت ٢٤٠/ ٨٥٤م) تاريخ خليفة بن خياط، ٢ج، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٦٧، ص ٣٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: خليفة، تاريخ؛ ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون، تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه أنطوان صالحاني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨، ص ١٠١. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: ابن العبري، مختصر؛ ابن شداد، الأعلاق، جـ١، ص ٤٢، ٤٣؛ المقدسي، مطهر بن طاهر، البدء والتاريخ، ٦ج في ٣م، مكتبة الخياط، بيروت، د. ت، جـ٥ ص ١٨٤ سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: المقدسي، البدء؛ محمد حميد الله مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الارشاد ١٩٦٩. ص ٣٧٨، رقم ٣٥٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: محمد حميد الله، مجموعة؛ أحمد عادل كمال، الطريق الى دمشق (فتح بلاد الشام)، دار النفائس، ١٩٨٠، ص ٣٨٩. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: أحمد عادل، الطريق.

★ النص عند ابن عساكر: «قال اسماعيل بن عياش (٦٢): ان أبا عبيدة كتب لأهل بعلبك:.. هذا أمان من أبي عبيدة بن الجراح، لفلان بن فلان وفلان وأهل مدينتهم بعلبك، رومها وفرسها وعربها، ولرؤسائها وسكانها الروم والنصارى، ولأموالهم ولدوابهم ولبيعهم ودياراتهم وكل شيء لهم خارج المدينة من المواشي، ولأرحائهم، وانهم على سكنهم لا يكرهون عليه، وان عليهم السمع والنصح والطاعة، ولا عقب بيعة بيننا وبينهم فيما قد خلا من القتال والحرب. وان للروم أن يسرفوا و يظعنوا حيث شاؤوا خمسة عشر ميلا، ولا يلبثوا في قرية أو أبنية. ولأهل المدينة وتجارها وكسابها أن يتجروا في المدينة شهري ربيع وجمادى الأولى، فاذا انسلخ فانهم يسيرون حيث شاؤوا أن يمكثوا بأموالهم ودوابهم. وإن مكثوا بعد الثلاثة أشهر فان عليهم مثل ما على أهل المدينة من الطاعة والنصح واعطاء الذي عليهم من السبيل. فان أحبوا أن يسيروا عند نفاد هذه الصحيفة ساروا. وان لنا على الروم وفارس أن لا يحملوا شيئاً كان للمؤتمنين من أموالهم عند النبط والعرب من حيث نفاد هذه الصحيفة.. فان مكثوا فلنا عشور العرب والروم وأهل المدينة، وان شاؤوا أن يذهبوا حيث شاؤوا من الأرض بأموالهم، فان ذمة أبي عبيدة والمؤمنين لهم بهم. وان للمؤتمنين ما عرفوا من أموالهم عند الروم والعرب وان لنا عندهم كل نفس حرة مسلمة فيهم، في رومهم وفرسهم وعربهم ونبطهم. والله هو الشاهد على هذه الصحيفة، و يزيد بن أبي سفيان. ومعمر بن وثاب. وكتب عبد الله بن رومان، وختم أبو عبيدة بخاتمه» (٦٣)

وقد اختصر ياقوت الحموي ما جاء في كتاب العهد بقوله:.. وكتب لهم كتاباً أجلهم فيه الى شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى، فمن جلا سار الى حيث شاء، ومن أقام فعليه الجزية (٦٤).

و يهمنا من كتاب الصلح مع أهل بعلبك: النص على أنهم من قوميات مختلفة:

ـ الروم: وهم رعاة الامبراطورية البيزنطية الحاكمة.

ـ الفرس: وهم من بقايا الفرس الذين اخضعوا ساحل الشام لحكمهم أثناء صراعهم ضد الروم، وقد استعرب الكثير منهم، وكانوا في عدة أماكن من بلاد العرب والشام، ثم انتقلوا الى السواحل فيما بعد.

ـ العرب: وكانوا يستوطنون بعلبك قبل حركة الفتح الاسلامي، مما يدل على قدم

٦٢. سيأتي التعريف به.

٦٣. ابن عساكر، تاريخ دمشق (مخ)، جـ٢٠، ص ٤٠٠ وفي النسخة التي حققها شكري فيصل وسكينة الشهابي ومطاع الطرابيشي أكثرهن وهم (انظر: تاريخ دمشق ـ تراجم حرف العين (عبد الله بن جابر ـ عبد الله بن زيد)، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨١. ص ٣٦٨، ٣٦٩.

٦٤. الحموي، معجم جـ١، ص ٤٥٤.

الوجود العربي في القسم الشرقي من لبنان على الأقل. و يأتي مرور الشاعر المعروف «امرؤ القيس الكندي» بها في وقت مبكر قبل ظهور الاسلام، وهو في طريقه الى حمص، ليؤكد هذه الحقيقة (٦٥).

النصارى: وهم السكان الوطنيون من أهل بعلبك. ومنهم النبط أو الأنباط.

رواية «الواقدي» حول فتح بعلبك: من الواضح، أننا ندين، في معلوماتنا عن فتح بعلبك، بالفضل بشكل رئيس للمؤرخ محمد بن عبد الله البصري الأزدي (المتوفى سنة ٢٣١هـ) في كتابه «فتوح الشام». على أنه ليس في الكتاب الذي وصلنا نص كتاب الصلح. كما ليس فيه أية اشارة لفتح مدن لبنان الأخرى.

وهناك رواية أخرى عن فتح بعلبك منسوبة الى الواقدي (المتوفى ٢٠٧هـ) في كتاب «فتوح الشام ومصر» المنسوب اليه. وهذا الكتاب يعتبره المستشرق مارجليوث كتاباً ظنياً وليس بذي قيمة تاريخية (٦٦). بينما يعتبره جرجي زيدان أشبه بالقصص عنه بالتاريخ لما حواه من التفاصيل والمبالغات، لكنه مؤسس على الحقيقة، وفيه حقائق لا توجد في سواه من كتب الفتوح (٦٧). ونحن نؤيد ما ذكره جرجي زيدان، ففي الكتاب جملة حقائق تاريخية تدعمها المصادر الموثوقة، و يجدر بالباحثين والمحققين أن يوجهوا عنايتهم إليها.

تقول الرواية: ان أبا عبيدة أتى الى بعلبك بعد فتح قنسرين والعواصم، وكان قد عقد مع أهلها صلحاً وكذلك مع أهل حمص وشيزر وغيرها، وإن مدة الصلح أشرفت على الانقضاء ولذلك عاد لتقرير أمرها، خصوصاً بعد أن قدمت جموع هائلة من الروم عن طريق حمص و بعلبك وانتشارها في البقاع، حيث خشي المسلمون أن يحال بينهم و بين اخوانهم المرابطين في سواد الأردن (٦٨). وقبل أن يصل أبو عبيدة الى بعلبك قام جنوده بالاستيلاء على قافلة كانت قادمة من الساحل وفيها أربعمائة حمل من السكر والفستق والتين وغير ذلك. وأخذوا رجال القافلة أسرى، ولكن بعضهم استطاع الافلات والوصول الى المدينة، فأخبروا بقدوم المسلمين (٦٩) وكان في بعلبك بطريق يدعى «هربيس» فخرج الى ظاهرها في

٦٥. ابن عساكر، تهذيب، جـ٣، ص ١٠٥. وكان امرؤ القيس قد مر ببعلبك فلم يستضفه أحد من أهلها، فقال: لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ولابن جريج كان في حمص أنكر انظر: السمعاني، ورقة ٨٦ أ.

٦٦. مارجوليوث، س، دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، دار الثقافة، د. ت. ص ١٠٨. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: مارجليوث، دراسات.

٦٧. جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ٤ ج، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٧. جـ٢ ص ٤٥٤. سيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: جرجي زيدان، تاريخ آداب.

٦٨. ابن عساكر، تهذيب جـ١، ص ١٦١.

٦٩. الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٧٥، ص ٧٦.

سبعة آلاف رجل لقتال المسلمين، ولكنه ارتد منهزماً ومثقلا بالجراح، وعندما وصل أبو عبيدة الى أسوار المدينة تبين له أنها تكتظ بالسكان من أهلها وأهل السواد والقرى القريبة منها، وأنها مدينة هائلة وحصن حصين، ولا غرو ففيها القلعة الرومانية التي تعد من عجائب الدنيا (٧٠)، كما لاحظ شدة البرد عندها شتاء وصيفاً (٧١)، فكتب اليهم كتاباً يقول فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من أمير جيوش المسلمين بالشام وخليفة أمير المؤمنين فيهم، أبي عبيدة بن الجراح، الى أهل بعلبك من المخالفين والمعاندين، فان الله سبحانه وتعالى، وله الحمد، أظهر الدين وأعز أولياءه المؤمنين على جنود الكافرين، وفتح عليهم البلاد وأذل أهل الفساد، وان كتابنا هذا معذرة بيننا و بينكم وتقدمة الى كبيركم وصغيركم لأننا قوم لا نرى في ديننا البغي، وما كنا بالذين نقاتلكم حتى نعلم ما عندكم، وان دخلتم فيما دخل فيه أهل المدن من قبلكم من الصلح والأمان صالحناكم، وان أردتم الذمام ذممناكم، وإن أبيتم الا القتال استعنا عليكم بالله وحار بناكم. فأسرعوا بالجواب، والسلام على من اتبع الهدى). إنا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى) (٧٢).

وقد أحدث الكتاب خلفاً بين أهل بعلبك، فمنهم من وافق على تسليم المدينة دون قتال، ومنهم من صمم على المقاومة، وفيهم البطريق «هربيس»، وصعد المقاتلون الى الأسوار وراحوا يقذفون المسلمين بالسهام والحجارة، ثم خرجوا من الأبواب وقاتلوهم يومين، ولكن المسلمين ألجأوهم الى ضيعة حصينة في الجبل فحاصروهم فيها حتى أجبروهم على الاستسلام وصالحوهم على ألفي أوقية من الذهب ومثلها من الفضة، وألفي ثوب من الديباج، وخمسة آلاف سيف، وأن يسلم المقاتلون المحاصرون في الضيعة سلاحهم، و يؤخذ منهم رهائن لضمان تسليم المال المقرر، وأن يؤدوا خراج أرضهم للعام التالي، وأداء

٧٠. انظر عنها. اليعقوبي، احمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م)، البلدان نشر ضمن الأعلاق النفسية، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٨١. ص ٣٢٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: اليعقوبي، بلدان، الأصطخري أبو اسحق ابراهيم بن محمد (ت ق ٤هـ/ ١٠م)، الأقاليم، بغداد، مكتبة المثنى، د. ت. ص ٣٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا الأصطخري، الأقاليم؛ الأصطخري، أبو اسحق ابراهيم بن محمد، المسالك والممالك، نشره دي غو يه، ليدن، بريل، ١٩٢٧. ص ٢٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الاصطخري، المسالك، ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، نشره دي خو يه، ليدن، بريل، ١٨٨٥، ص ١١٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه، مختصر؛ ابن شداد، الأعلاق، ص ٤٢؛ النو يري، نهاية جـ١، ص ٣٨٣؛ محمد أحمد باشميل، حروب الاسلام في الشام، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٣٤٩. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: محمد أحمد باشميل، حروب.

٧١. حول هذا يذكر المقدسي في «أحسن التقاسيم، ص ١٧٩»: ان أشد اقليم بالشام برداً: بعلبك وما حولها، ومن أمثالهم: قيل للبرد: أين نطلبك؟ قال: بالبلقاء قال: فان لم نجدك. قال: بعلبك بيتي.

٧٢. الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٧٧.

الجزية في كل عام، وأن لا يحملوا سلاحاً على المسلمين ولا يكاتبوا أحداً من ملوكهم، ولا يحدثوا كنيسة، وعليهم أن يقدموا النصح للمسلمين.

واشترط أهل بعلبك في مقابل ذلك أن لا يدخل عسكر المسلمين الى مدينتهم. وأن يرفع الحصار عن مقاتليهم في الضيعة المحاصرة. فوافق أبو عبيدة على ذلك واستعمل على بعلبك رجلا من سادات قريش يدعى «رافع بن عبد الله السهمي»(٧٣). وضم اليه (٥٠٠) فارس من أبناء عشيرته و(٤٠٠) من أخلاط المسلمين، وأوصاه أن يقيم الأرصاد والمسالح في أطراف البلاد، وحذره من الروم الذين في السواحل، وأمره أن يشن الغارات عليهم، وأن تكون الغارة في المائة والمائتي رجل، فالتزم رافع السهمي بتنفيذ أوامر أبي عبيدة ووصاياه، فأقام خارج بعلبك وبعث السرايا لشن الغارات على سواحل الروم، وكان يبعث بالغنائم فيبيعها في أسواق بعلبك عن طريق التجار، ووقف هؤلاء على حسن معاملة المسلمين في البيع والشراء فرغبوا بدخول رافع ومن معه الى المدينة فدخلوها بعد أن أذن لهم أبو عبيدة بذلك(٧٤).

ويلاحظ من يقرأ هذه الرواية المنسوبة للواقدي أنها حافلة بأسماء شخصيات من المشاهير والمجاهيل الذين كان لهم دورهم في فتح بعلبك.

فمن المشاهير الذين ورد ذكرهم:

«عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق»، و«عمرو بن معد يكرب الزبيدي»، و«ضرار بن الأزور»، و«ذو الكلاع الحميري»(٧٥)، و«هاشم بن عتبة»(٧٦)، و«ربيعة بن عامر»(٧٧)، و«سعيد بن عمرو بن نفيل»(٧٨)، و«مالك بن الأشتر»(٧٩)، وهذا الأخير ينسب

---

٧٣. في تاريخ الطبري، جـ٣، ص ٥٥٥، نجد «رافع بن عبد الله» غير منسوب، وهو ممن شهد القادسية مع سعد بن أبي وقاص سنة ١٤هـ. وكان خليفة لضرار بن الخطاب الفهري على ماسبذان في بلاد فارس سنة ١٧هـ. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٤٩.

٧٤. الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٧٥ ـ ٨٦؛ ميخائيل الوف البعلبكي، تاريخ بعلبك، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٨٩. ص ١٩. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ميخائيل، تاريخ.

٧٥. قتل في موقعة صفين سنة ٣٧هـ. الدينوري، أبو حنيفة أحمد داود (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) الأخبار الطوال، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٧٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الدينوري، الأخبار.

٧٦. يعرف بالمرقال، قتل في صفين. الدينوري، الأخبار، ص ١٨٣.

٧٧. من الصحابة، يعرف بأبي البراء، ذكره البخاري في التاريخ الكبير، جـ٣، ص ٢٨٠؛ ابن حجر، تهذيب، جـ٣، ٢٥٧.

٧٨. صحابي قدم الشام بعد منصرف الرسول صلى الله عليه وسلم، مات سنة ٥٨هـ. البخاري، التاريخ، جـ٣، ص ٤٥٢.

٧٩. الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت ٦١١هـ/ ١٢١٤م) كتاب الاشارات في معرفة الزيارات، نشره وحققه =

اليه قبر على باب بعلبك من جهة الشمال(٨٠)، واذا كان المشهور أنه توفي عند القلزم بمصر سنة (٣٧هـ)(٨١)، فان نسبة القبر اليه لا بد وأنها ترتبط بحادثة ما عند بعلبك منها هذه الرواية المنسوبة للواقدي، اذ يقول ياقوت الحموي: «وبها قبر يزعمون أنه قبر مالك بن الأشتر النخعي»(٨٢). ونحن نقول: ليس أمامنا وبين أيدينا من معلومات سوى اشتراك ابن الأشتر في حصار بعلبك، حسب الرواية المنسوبة للواقدي، مما يكسبها بعض التأييد، رغم تحفظنا نحو صحتها لما احتوت عليه من تفصيلات كثيرة.

ومنهم أيضاً: «حبان بن تميم الثقفي» و«حمران بن أسيد الحضرمي»، ولم أجدلهما ترجمة، بل وقفت على ذكر أبو يهما(٨٣).

أما المجاهيل الذين لم أجد لهم ذكراً، فمنهم:

«عامر بن وهب اليشكري» و«غياث بن عدي الطائي»، و«سهل بن صباح العبسي» و«زيد بن ورقة بن عامر الزبيدي»، و«مصعب بن عدي»، فضلا عن «رافع بن عبد الله السهمي» الذي استعمله أبو عبيدة على بعلبك، حسب هذه الرواية. ولعله: رافع بن عبد الله بن حذافة السهمي الذي أسره الروم أيام الخليفة عمر ثم تخلص منهم ـ وقد ذكره الحاكم النيسابوري في (المستدرك على الصحيحين (٣/ ٦٣٠).

ويظل التاريخ لفتح بعلبك متأرجحاً بين سنتي (١٤ و١٥هـ)، حيث يقول ابن اسحاق وغيره: «سنة ١٤: فتحت حمص وبعلبك صلحاً على يدي أبي عبيدة في ذي القعدة، ويقال في سنة ١٥هـ»(٨٤).

ويذكر الواقدي بعد فتح بعلبك أن أبا عبيدة هم بالرحيل الى حمص فورد عليه صاحب «عين الجوز ـ لعلها عين الجر (عنجر الحالية) ـ يطلب الصلح، فصالحه على نصف ما صالحه عليه أهل بعلبك، وولى عليهم «سالم بن ذؤيب السلمي»، وأوصاه بمثل ما

= جانين سورويل طومين، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٣، ص ٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الهروي، الزيارات.

٨٠. المصدر نفسه.

٨١. البخاري، التاريخ، جـ٧، ص ٣١١؛ الكندي، محمد بن يوسف (٣٥٥هـ/ ٩٦٥م) الولاة والقضاة، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨، ص ٢٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الكندي، الولاة؛ ابن شداد، الأعلاق، ٢٦٩.

٨٢. الحموي، معجم، جـ١، ص ٤٥٦.

٨٣. تميم الثقفي والد حبان، ويروى عن أبي الدرداء البخاري، التاريخ، جـ٢، ص ١٥٣؛ ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن ادريس، الجرح والتعديل حيدر أباد الدكن، جـ٢، ص ٤٤١، رقم ١٧٦١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن أبي حاتم، الجرح.

٨٤. ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ١٦٠.

أوصى به رافع السهمي (٨٥).

أما ساحل الشام، فيبدأ الاحتكاك به ابان حصار بعلبك حيث كان للمسلمين مسلحتان: مسلحة ببرزه، عليها أبو الدرداء الأنصاري (٨٦) وفيها أبو عثمان الصنعاني شراحيل بن مرثد، والأخرى بعين ميسنون فأغار عليهم بطريق، من عقبة بيروت يدعى «سنسناق»، ويبدو أنه نجح في قتل جماعة من أهل تلك المسلحة، ولذا دعيت ميسنون ب«عين الشهداء» (٨٧).

وقد جاءت هذه الغارة لتعجل في فتح القطاع الأوسط من ساحل الشام، والذي يمتد من عرقة شمالا إلى صيدا جنوباً، فبعد فتح دمشق الذي تم في شهر رجب سنة ١٤هـ. خرج يزيد بن أبي سفيان وبصحبته أخوه معاوية نحو بلاد الساحل لفتحها، ولم تحدد المصادر التاريخية الطريق التي سلكها المسلمون الى المدن الساحلية، كما لم يبين البلاذري أي مدينة فتحت قبل الأخرى، إذ يوردها دون مراعاة لترتيب مواقعها الجغرافية فيذكر «صيدا» أولا، وهي في الجنوب من القطاع الأوسط لساحل الشام، ثم يذكر «عرقة» وهي في أقصى الشمال من القطاع، وبعدها يذكر «جبيل» و«بيروت»، وهما في الوسط، فهل سارت حركة الفتح على هذا النحو؟ أم أن الترتيب ـ كما ورد ـ جاء عفوياً دون قصد محدد؟

إن الاجابة على هذا التساؤل لا يمكن أن تكون جازمة، ولكن يمكن الظن بأن البلاذري لم يذكر المدن المفتوحة على ذلك النسق اعتباطاً، إذ يحتمل أن تكون القوة الاسلامية المنطلقة من دمشق انقسمت الى فرقتين، توجهت إحداهما جنوباً بقيادة يزيد الى صيدا، وتوجهت الأخرى شمالا بقيادة معاوية إلى عرقة، وهذا الظن يدعمه نص رواية البلاذري حيث يقول: «ان يزيد أتى بعد فتح مدينة دمشق: صيدا وعرقة وجبيل وبيروت ـ وهي سواحل ـ وعلى مقدمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً، وجلا كثيراً من أهلها، وتولى فتح عرقة معاوية نفسه في ولاية يزيد» (٨٨).

غير أن البلاذري يورد رواية أخرى تفيد أن الفاتح لمدن الساحل هو معاوية لوحده دون أن يوضح اذا كانت حركة الفتح قد تمت قبل فتح دمشق أو بعدها، فيقول: «كان

٨٥. الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٨٥.

٨٦. البلاذري، فتوح، جـ ص ١٤٤. وبرزة: قرية من غوطة دمشق.

٨٧. الفسوي، أبو يوسف يعقوب (ت ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م)، المعرفة والتاريخ، ٣ج، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٤. جـ٣، ص ٢٨٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الفسوي، المعرفة؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ١، ص ٥٠٨، ٥٠٩. ولعل ميسنون هي التي تقع شرقي سوق الغرب، وكيفون في منطقة عالية بجبل لبنان. محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني، دار النهار، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢٣. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: محمد علي مكي، لبنان.

٨٨. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥٠؛ قدامة، الخراج، ص ٢٩٥.

يزيد بن أبي سفيان وجه معاوية الى سواحل دمشق، سوى أطرابلس، فانه لم يكن يطمع فيها، فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة، فربما قوتل قتالا غير شديد، وربما رمى ففتحها» (٨٩).

أما مدينة صور التابعة لجند الأردن فقد كان أمرها موكولا الى قائد القطاع «شرحبيل بن حسنة» حيث تمكن من فتحها في أواخر سنة ١٣هـ (٩٠). ولذا تعتبر اولى المدن «اللبنانية» التي دخلها المسلمون. ويبدو أنها لم تبد مقاومة تذكر أمام الفاتحين، ولهذا لا نجد أية تفاصيل عن ظروف فتحها عند البلاذري، مما يوحي بأنها لم تكن مؤهلة للصمود حيث كانت تحصيناتها خربة، وهذا القول ينسحب أيضاً على صيدا وبيروت وجبيل وعرقة، مع فارق نسبي بسيط، حيث كانت كل منها تستسلم بعد يومين أو أيام قليلة من الحصار، مما يؤكد ضآلة شأن تلك المدن، بالمقارنة مع «بعلبك» أو «طرابلس» التي لم تكن آخر المدن «اللبنانية» فتحاً فحسب، بل ربما كانت آخر بلاد الشام كلها فتحاً.

إلا أن الكتاب المنسوب الى الواقدي يزعم أن فتح صور تم على يد راهب نصراني اعتنق الاسلام يدعى «يوقنا»، في الوقت الذي كان يحاصرها يزيد بن أبي سفيان (٩١) وذلك بعد فتح طرابلس على يد الراهب نفسه.

فتح طرابلس

عندما نشرع في البحث لدراسة وتحقيق التاريخ الذي تم فيه فتح طرابلس، لا بد أن نضع بين أيدينا كتاب «فتوح الشام» المنسوب للواقدي، فقد جاء فيه أن الفتح تم على يد الراهب الحلبي المدعو يوقنا، والذي أصبح اسمه بعد اسلامه «عبد الله»، وأن الفتح كان عن طريق خدعة قام بها، وسلم المدينة الى القائد خالد بن الوليد (٩٢).

واذا كانت هذه الرواية غير معتمدة عند المؤرخين، فاننا لا نستطيع أن نهملها كلياً اذ تفيد بأن طرابلس فتحت قبل مدينة قيسارية على ساحل فلسطين التي فتحت في سنة ١٩هـ. وأن أبا عبيدة بن الجراح كتب الى عمر بن الخطاب يبشره بهذا الفتح، وأن الخبر عندما وصل الى أهل الرملة وعكا وعسقلان ونابلس وطبرية، عقدوا كلهم صلحاً مع المسلمين وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية (٩٣). وفي رواية لابن عساكر ان فتح طرابلس كان قبل فتح قيسارية بسنة واحدة. وهذا يعني أنها فتحت سنة ١٨هـ.

٨٩. البلاذري، فتوح، جـ١، ص ١٥٢.

٩٠. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٣٩؛ قدامة، الخراج، ص ٢٩٠.

٩١. الواقدي، فتوح، جـ٢، ص ١٨ ـ ٢١ ـ ٢١.

٩٢. المصدر السابق، جـ٢، ص ١٧.

٩٣. المصدر السابق، جـ٢، صـ٢١.

ورواية ابن عساكر تسترعي النظر، فقد وردت في ترجمة ل«سفيان بن مجيب الأزدي»(٩٤) الذي فتح طرابلس في خلافة عثمان بن عفان، حوالي سنة ٢٥ هـ. و يمكن القول انه اعتمد على رواية البلاذري في نسبة الفتح الى «سفيان» اذ لم يشر بشيء الى الراهب «يوقنا» بطل الرواية المزعومة المنسوبة الى الواقدي، الا أنه ينقل بالسند عن محدث طرابلس في القرن الثاني للهجرة «معاوية بن يحيى الأطرابلسي» قوله: «ان قيسارية فلسطين كانت آخر الشام ومدائنها وحصون سواحلها فتحاً، وأن طرابلس

٩٤. هو «سفيان بن مجيب الأزدي الشامي»، يعد من الشاميين. كان من قدماء الصحابة قال ابن عائد في «المغازي»: «معاوية بن أبي سفيان زوجه حفصة بنت أمية بن حرب». وكان أميراً على بعلبك في خلافة عثمان، حتى ما بعد مقتله في سنة ٣٥هـ. وانفرد «الصفدي» بالقول أنه ولي قضاء بعلبك لمعاوية وتوفي في حدود الخمسين للهجرة. الصفدي، صلاح الدين بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، جـ١٥، تحقيق بيرند راتكه، جمعية المستشرقين الألمان، بيروت، ١٩٧٩. ص ٢٨٣، ٢٨٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا: الصفدي، الوافي، وكان رأى النبي صلى الله عليه وسلم وحج معه الوداع. روى عنه الحجاج ابن عبد الله الثمالي، وله حديث في صفة جهنم، أخرجه أبو نعيم الأصبهاني والحافظ بن مندة وغيرهما. البخاري، التاريخ، م٨ ق ٢ جـ٤، ص ١٢٤.
وقيل: هو «سفيان بن مجبب، بالباء بعد الجيم. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٢٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، عيون التواريخ والسير، دلهي، ص ٩٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الجوزي عيون. وقيل «سفيان بن محبب» بالحاء والباء المشددة. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) أسد الغابة في معرفة الصحابة، تقديم آية العد السيد شهاب الدين النجفي، المكتبة الاسلامية، طهران، ١٣٣٧، جـ٢ ص ٣٢١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الأثير، أسد الغابة. وقيل: بل هو «نفير بن مجيب الثمالي الشامي» ورجحه: الدارقطني، وابن عبد البر، وأبو أحمد العسكري، وابن مندة، وأبو عمر، وابن أبي حاتم، والبخاري، وابن ماكولا، وأبو اليمان. ووقع في رواية عبد الباقي بن قانع «بخيت» بضم الباء وفتح الخاء وسكون الياء والتاء. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٣، ص ٥٥؛
ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٤ ج، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٠، جـ٤، ص ١٥١٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عبد البر الاستيعاب؛ ابن ماكولا، أبو نصر علي بن هبة الله (ت ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م)، الاكمال في رفع الارتياب، تحقيق المعلمي اليماني، طبعة محمد أمين دمج، بيروت، ١٩٦٢، جـ٧، ص ٢١٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن ماكولا، الاكمال، وخالفه عمر الزيات. والراجح «سفيان» عند أبي حاتم الرازي وأبي زرعة، البخاري، التاريخ، مجلد ٨ق ٢ ج ٤، ص ١٢٤، بيان خطأ البخاري في تاريخه، ابن أبي حاتم، الجرح، ص ١٢٩ بالهامش وكذلك عند بقي بن مخلد، مقدمة بقي بن مخلد تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤. ص ١٦١ رقم ٩١٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: بن مخلد، مقدمة. وكذلك عند الخطيب البغدادي، ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٢، ص ١٥٥؛ وابن عساكر، تهذيب، جـ٦، ص ١٨٣؛ الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)، تجريد اسماء الصحابة، ٢ج، طبعة بومباي، ١٩٦٩. جـ١، ص ٣٢٧، جـ٢ ص ١١٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الذهبي، تجريد؛ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)، المشتبه في الرجال، ٢ج، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، ١٩٦٢. جـ٢، ص ٥٧٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الذهبي، المشتبه؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، تلقيح فهوم أهل الأثر، مكتبة =

[بساحل] دمشق كانت قبلها فتحاً بسنة أو نحو ذلك»..(٩٥). وهذا القول يؤيد رواية «الواقدي» في أن الفتح كان في سنة ١٨ هـ. ولكن المؤرخ الأزدي المتوفى سنة ٢٣١ هـ. تحدث في كتابه عن فتح قيسارية(٩٦) ولم يذكر شيئاً عن فتح طرابلس ولا غيرها من مدن ساحل دمشق.

ان الرواية المنسوبة الى الواقدي، بالاضافة الى ما جاء في تاريخ ابن عساكر تجعل الفتح مبكراً عن رواية البلاذري، فهما يجعلانه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، أما رواية البلاذري ـ ومن بعده قدامة بن جعفر الذي ينقل عنه ـ فتجعله في عهد عثمان بن عفان.

فهل افتتحت طرابلس مرتين؟

أم ان رواية الواقدي لا أساس لها من الصحة؟

ان أحداً لم يناقش هذا السؤال من قبل، بالرغم من أن كثيراً من المؤرخين المحدثين اتفقوا على تاريخ فتح طرابلس في السنة التي تفيدها رواية الواقدي(٩٧).

وقد يكون هذا الغموض في مسألة التاريخ لفتح طرابلس هو الذي حدا بالطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ. لأن يغفل أي ذكر عنها، رغم اعتماده في كثير من رواياته على الواقدي، وقد سبقت الاشارة الى أنه نزل بيروت وقرأ على ابن مزيد البيروتي. وان كان قد ذكر فتح قيسارية ضمن حوادث سنة ١٥ هـ. خصوصاً أنه بدأ يؤرخ بعد وفاة الواقدي بقليل، وعاصر البلاذري وتوفي بعده بواحد وثلاثين عاماً. و يصمت عن ذكر شيء من ذلك كل من «الأزدي» المتوفي سنة ٢٣١ هـ. و«اليعقوبي» المتوفى سنة ٢٨٤هـ. و«المسعودي» المتوفى سنة ٣٤٦ هـ. و يعتبر «البلاذري» المتوفى سنة ٢٧٩ هـ. هو أول من حدثنا عن فتح طرابلس على يد «سفيان بن مجيب الأزدي»، وعنه ينقل «قدامة بن جعفر» المتوفى سنة ٣٢٩ هـ. و يعتمد روايته «ابن الأثير» المتوفى سنة ٦٣٠هـ. وان كان ذكرها ضمن حوادث سنة ١٣هـ.(٩٨).

= الآداب، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٩٨، ١٩٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الجوزي، تلقيح. أما ابن ماكولا، فقد انفرد بقوله: «واختلف في اسمه واسم أبيه فقيل «نفير بن عريب؟ ابن ماكولا، الاكمال، جـ٧، ص ٢١٤، ص ٣٥٩. وانظر ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق احسان عباس وناصر الدين الأسد، مراجعة أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ص ٣١١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حزم، جوامع.

٩٥. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٦؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ٦، ص ١٨٣.

٩٦. الأزدي، فتوح، ص ٢٧٦ وما بعدها.

٩٧. La Grande Enceklopidia — R. Dasau, Vol. 31, p. 402. Paris; Encyclopaedia Britannica, Vol. 22, p. 481.

٩٨. ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص ٤٣١.

وسنضطر هنا أن نستعيد النصين الواردين عند البلاذري حول فتح ساحل دمشق لنعلق عليهما، فالأول يقول: «ان يزيد أتى بعد فتح مدينة دمشق: صيدا وعرقة وجبيل وبيروت، وهي سواحل، وعلى مقدمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثيراً من أهلها، وتولى فتح عرقة معاوية نفسه في ولاية يزيد. ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان بن عفان، فقصد لهم معاوية حتى فتحها ثم رمها وشحنها بالمقاتلة، وأعطاهم القطائع»(٩٩).

والنص الثاني يقول: «.. وكان يزيد بن أبي سفيان وجه معاوية الى سواحل دمشق سوى أطرابلس، فانه لم يكن يطمع فيها..».

ان ما جاء به البلاذري يدعو لطرح سؤال هو:

كيف يفتح يزيد ومعاوية: صيدا وعرقة وجبيل وبيروت، وهي سواحل، ولا يطمعان في فتح طرابلس؟

ان هذا وان كان يقوم كدليل قوي على حصانة طرابلس ومنعتها، وأن فتحها لم يكن ميسراً كغيرها من المدن الساحلية، فانه لا يمنع من الاستيلاء على المدينة عن طريق مكيدة حربية كالتي قام بها «يوقنا» على حد الرواية المنسوبة للواقدي، وتاريخ الصراع بين المسلمين والبيزنطيين (الروم) مليء بمواقف الخداع الحربي الذي كان يقوم به الطرفان في عمليات الحصار والقتال وغيرها. فمن المحتمل أن طرابلس سقطت بيد المسلمين قبل قيسارية ولكنها لم تلبث أن عادت الى السيطرة البيزنطية عندما غلبوا على بعض السواحل، كما يقول البلاذري في النص الأسبق.

وثمت رواية أخرى تنسب للواقدي وتتحدث عن موقعة جرت بالقرب من طرابلس في شهر شعبان سنة ١٣هـ. في مرج بينها وبين عرقة يعرف بمرج السلسلة عند حصن يعرف ب«أبي القدس» حيث هاجمت قوة من المسلمين مؤلفة من ٥٠٠ رجل بقيادة «عبد الله بن جعفر «مع جملة من الصحابة، من بينهم «أبو ذر الغفاري» وغيره، جموع الروم وهم في سوق كبير لهم عند دير بالقرب من الحصن(١٠٠). وكادت الغلبة أن تكون للروم الذين بلغوا عشرين ألفاً، لولا أن أنجد المسلمين خالد بن الوليد، وهزم الروم وطاردهم حتى وصل الى النهر خارج طرابلس. وقتل في هذه الموقعة بطريق(١٠١) طرابلس(١٠٢).

٩٩. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥٠؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٥٩.

١٠٠. يبدو من الوصف أنه في منطقة «البداوي» عند مدخل طرابلس الشمالي.

١٠١. البطريق: هي الصيغة المعرفة للكلمة اللاتينية: باتريكيوس Patricius وقد أنشأ هذه الرتبة الامبراطور قسطنطين (٣٠٦م ـ ٣٣٧م)، وهي رتبة لا تتصل بأي وظيفة، وكانت تمنح لمن يؤدي للدولة خدمات جليلة ـ وقد جرى الاصطلاح على أنها تدل على القائد عند البيزنطيين كالمصطلحات الأخرى «دمستق Domesticus» و«دقس Dux»

١٠٢. الواقدي، فتوح، جـ١، ص ٥٦.

واذا كان الواقدي ينفرد بذكر هذه الموقعة ـ ان جاز لنا القول ـ فاننا لا نستطيع أن نهملها أيضاً، اذ أن «مرج السلسلة» قد ورد ذكره عند «ابن عساكر» أيضاً عند الحديث عن فتح طرابلس، حيث قال ان «سفيان بن مجيب» أقام بعسكره «في مرج السلسلة بينه وبين مدينة أطرابلس خمسة أميال في أصل جبل يقال له طربل، فكانوا هنالك (أي الروم) يسير اليهم منه»...(١٠٣). كما ورد ذكر حصن «أبي القدس» عند الجغرافي «الادريسي» الذي يسميه ب«أبي العدس» (بالعين)، وهو يستعرض الحصون القريبة من طرابلس، فيقول: «.. وينضاف اليها عدة حصون وقلاع معمورة داخلة في عمالتها مثل أنف الحجر(١٠٤).. وحصن القلمون(١٠٥)، وحصن أبي العدس، وأرطوسية»(١٠٦).

ولا يزال الكبار في السن من أهل طرابلس ونواحيها يذكرون وجود برج يعرف ب«برج العدس» شمالي المدينة على ساحل البحر. وفي سنة (١٨٩٧م) وضع قنصل فرنسا في طرابلس «Paul Savoie» مخططاً صغيراً بين عليه المواقع والأسماء الشائعة للأبراج القائمة على ساحلها في ذلك الوقت، ومنها «برج العدس»، وذكر هذا البرج أيضاً عدد من المستشرقين والمؤرخين والباحثين(١٠٧). وهذا يوثق الى حد ما جانباً من رواية الواقدي على الأقل، و يفرض علينا أن لا نطرحها جانباً برمتها.

١٠٣. ابن عساكر، تاريخ (مخ)، جـ٦، ص ٧٦.

١٠٤. حالياً: أنفه، جنوبي طرابلس على ساحل البحر. والطريف أن الأستاذ «فتحي عثمان» يذكر اسمها نقلا عن لسترانج في كتابه بالانكليزية: فلسطين تحت حكم المسلمين «باسم «عناف الهجر» (وهي ترجمة أو تعريب سقيم بالمعنى الأصح). انظر: فتحي عثمان، الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري جـ١، القاهرة ١٩٦٦. ١٨٠. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: فتحي عثمان، الحدود. وردت «أنفة» في حديث ضعيف هذا نصه:

«قال جرير بن عتبة بن عبد الرحمن: سمعت أبي يحدث الأوزاعي وأنا جالس، قال: حدثني القاسم أبو عبد الرحمن، عن أبي أمامة الباهلي قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم ستغلبون على الشام وتصيبوا على بحرها حصناً يقال له أنفة، يبعث منه يوم القيامة اثنى عشر ألف شهيداً. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م)، المعجم الكبير، ١٢ج، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، وزارة الأوقاف العراقية بغداد ١٩٨٠، جـ٨، ص ٢٢٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبراني، المعجم.

١٠٥. حالياً القلمون، على بعد سبعة كيلومترات جنوبي طرابلس بينها وبين أنفة على البحر أيضاً.

١٠٦. الشريف الادريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تحقيق تيرولي وآخرون، بابولي، ١٩٧٠، ص ١٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الادريسي، نزهة. وارطوسية أو أرتوسية على ضفة نهر البارد بين عرقة وطرابلس على البحر.

١٠٧. Sauvaget, J., "Notes sur les de'fenses de la marine de Tripoli", Bulletin du Musee de Beyrouth. No. II. Paris, 1938; Berchem, Voyage ensuria, Vol. I, p. 124.
لورته، لويس، مشاهدات في لبنان، ترجمة كرم البستاني، بيروت ١٩٥١. ص ١٩، ص ٢٠، بالمتن والحاشية
=

طرابلس قبيل الفتح:

كانت طرابلس تفوق معظم مدن الشام بقوة تحصيناتها، وكان حصارها يتطلب وقتاً طويلا، كما تتطلب حصاراً خاصاً من البر والبحر، لأن البحر يوفر لها الحماية الطبيعية من جهات ثلاث (الشمال، والغرب، والجنوب)، و يحميها خندق عظيم وأسوار عالية من الجهة الشرقية المطلة على التلال المنتشرة في منبسط السهل. كما كانت تمتاز عن بقية مدن ساحل الشام، بوجود مجموعة الجزر في البحر قرب رأسها(١٠٨). ولا شك في أن هذه الجزر قد لعبت دوراً في مقاومة المدينة للمسلمين، إذ كانت المؤن والنجدات والامدادات تأتي تباعاً من أنحاء الامبراطورية البيزنطية إلى طرابلس وتمر عن طريق هذه الجزر، فتزيد من عناد أهلها، ولم تكن المدينة مهددة بانقطاع مياه النهر عنها، اذ أن أرضها غورية تنبثق منها المياه الصالحة للشرب بشكل آبار على عمق أمتار قليلة.

وحدث في سنة ٢٣هـ/٦٤٤م أن استطاع البيزنطيون أن يستعيدوا بعض المدن الساحلية من المسلمين، وأن يتشبثوا بها سنتين كاملتين، ومن الواضح أن تلك المدن كانت منها بيروت وجبيل وغيرها، وساعدهم على ذلك كثرة الجالية البيزنطية الموجودة في طرابلس وقد راحت الأجناد العربية تدفعهم حتى ارتدوا الى طرابلس التي بقيت كآخر معقل لهم على سواحل الشام(١٠٩).

كان لا بد عند ذلك من فتح طرابلس، بعد أن أطبق عليها الحصار من كل جانب وأصبحت محاطة بالمدن الاسلامية من جهات ثلاث، فمن الشمال استولى المسلمون على عرقة وحصنها المنيع، ومن الجنوب دخلت جبيل و بيروت في حوزتهم، ومن الشرق سقطت بعلبك في أيديهم، وبات أمر فتح طرابلس لا بد منه، اذ ليس من المعقول أن يتغاضى المسلمون عن وجود قاعدة بيزنطية تهدد الفتوح الاسلامية، هذا الى جانب كون طرابلس

= سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: لورته، مشاهدات؛ أسد رستم، آراء، ص ٤٣؛ سيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، الاسكندرية، ١٩٦٧. ص ٤٤٠، ٤٤١. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: سيد عبد العزيز، طرابلس؛ سميح الزين، تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٩ ص ٤٣٠ ــ ٤٣٤. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الزين، تاريخ؛ كامل البابا، نبذة عن تاريخ طرابلس (مخطوطة) كتبها في ٧ جمادى الآخرة/٢٦ آذار ١٩٥٠. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: البابا ونبذة. وأنظر كذلك كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور (عصر دولة المماليك) جـ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٥٩ ــ ٢٦٥. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عمر، تاريخ جـ٢.

١٠٨. ابراهيم العدوي، الأمويون والبيزنطيون، القاهرة، ١٩٥٣. ص٥٨. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابراهيم، الأمويون.

١٠٩. من تاريخ التحصينات العربية في ساحل الشام (بحث ألقاه محمد عبد الهادي شعيرة في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٣. ص ٤٢٩. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا. محمد عبد الهادي، من تاريخ التحصينات.

ميناء هاماً لاقليم الشام وثغراً لساحل دمشق وحمص. فكانت العوامل السياسية والاقتصادية والعسكرية تحتم الفتح، ولذا فان معاوية اهتم بأمرها بعد أن رأى البيزنطيين وهم يحاولون أن يتشبثوا بموطىء قدم لهم على ساحل الشام، وأنهم قد يستخدمون طرابلس كرأس حربة وكمنطلق لتهديد المدن المفتوحة، خصوصاً وأن البيزنطيين كانوا لا يزالون يتفوقون على المسلمين بأساطيلهم البحرية، وبقاء الساحل الاسلامي عرضة لغزواتهم.

وهكذا فان معاوية حصل على موافقة الخليفة عثمان ــ بعد مقتل عمر ــ بفتح ما تبقى من مدن الشام الساحلية، كما حصل على موافقته بركوب البحر بعد أن كان عمر يمانع في ذلك.

الحصار والفتح

لما استخلف عثمان وولي معاوية الشام، وجه معاوية، القائد الصحابي «سفيان بن مجيب الأزدي» الى طرابلس، وهي في ذلك الوقت ثلاث مدن مجتمعة في اللسان الرومي الداخل في البحر،(١١٠) وبها ثلاثة حصون. فجاءها سفيان بعسكر عظيم قادماً من بعلبك ــ حيث كان أميراً عليها ــ وعندما أصبح على بعد خمسة أميال من طرابلس، عسكر بجيشه في مرج عندها كان يعرف بمرج السلسلة عند سفح جبل «تربل» شمالي شرقي المدينة وباشر من هنالك حربه ضد الروم.

ومن الملاحظ أن البلاذري وغيره لم يوضحوا الطريق التي سلكها «سفيان» للوصول الى طرابلس، ولكن يمكن أن نرجح أنه سلك الطريق الداخلية من بعلبك الى الشمال باتجاه نهر العاصي وانعطف غرباً عند المنبسط المعروف بسهل البقيعة، ومن هناك انحدر جنوباً على طريق الساحل حتى وصل مشارف طرابلس الشمالية، ويؤيد هذا ورود ذكر مرج السلسلة وجبل تربل، وهما في الشمال الشرقي من المدينة.

وكان خارج المدينة حصن اعتصم به أهل طرابلس، وهو عند كنيستها الخارجة منها قبلي المدينة(١١١). فقام سفيان بعدة هجمات عليه وعلى المدينة وحصونها، فلم يوفق لمناعتها، ولذا وجد أن من المتعذر عليه أن يحاصر المدينة ويفتحها وهو لا يستند الى قاعدة قريبة يرتكز اليها، وأن أهل طرابلس يتصلون عن طريق البحر بالروم فيحصلون على الامدادات، مما يجعل أمر الحصار طويلا دون حسم. وعندما طال بالمسلمين الأمر ولم يحرزوا تقدماً يذكر، كتب سفيان الى معاوية يصف له معاناته أمامها، ويشرح له الموقف، ويطلب منه الرأي والمشورة، فكتب له معاوية: «ان ابن لك ولعسكرك حصناً يأوون اليه

١١٠. ابن تغري بردي، النجوم، نقلا عن السيرة المنصورية للمقدسي، ج ٧، ص ٣٢٢.

١١١. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص٧٦.

ليلا و يغزونهم نهاراً»(١١٢). وهنا ظهرت براعة سفيان وثباته على منازلة طرابلس، فبدأ بتنفيذ ما أشار عليه معاوية، وانتقل من المرج فعبر النهر الى ضفته الغربية، ونزل في مكان ملائم، يبعد عن المدينة ميلين أو نحو ذلك، وراح يبني حصناً هناك، والأرجح أنه كان فوق التلة الغربية المشرفة على النهر، والتي عرفت عند الصليبيين ب «تلة الحجاج» وليس بمستبعد أن تكون القلعة التي أتى على ذكرها الرحالة الفارسي «ناصر خسرو» قد أقيمت مكان حصن سفيان(١١٣). وكذلك أقيم فيما بعد في المكان نفسه حصن «صنجيل الصليبي»(١١٤).

وبما أن الحصار يحتاج الى قائد يتمتع بمزيتي الضبط الشديد والصبر الجميل، كما يحتاج الى جنود مدربين يتمتعون بالضبط والطاعة، فان انتصار المسلمين على الروم بعد حصار طويل، يدل على شدة ضبط «سفيان» ومقدار صبره، وحسن تدريب رجاله وتكامل ضبطهم(١١٥).

ويعتبر بناء الحصن عملا فذاً قام به سفيان، اذ استطاع أن يشيده بالرغم من تعرض العمال في أي وقت لهجوم يشنه الروم عليهم، وقد جاء بناء الحصن الذي عرف باسم «حصن سفيان»(١١٦) ليكون أول حصن من بناء العرب من ألفه الى يائه استخدم للمرابطة والهجوم(١١٧).

وعندما تم لسفيان بناء الحصن ـ الذي يؤكد الدكتور شعيرة أنه بني بين عامي ٢٣ ـ ٢٥ هـ. على التحقيق(١١٨) ـ أخذ يشدد ضغطه على الروم، فكان يبيت كل ليلة في حصنه ويحصن المسلمين فيه، ثم يغدو على العدو في الصباح، وقطع المادة عن أهل طرابلس من البحر وغيره، كما يقول البلاذري(١١٩)، وان كان لم يوضح كيف قطع سفيان المادة من البحر، هل كان ذلك بواسطة سفن تساعده بحراً ؟ أم أنه وضع حرساً على الشواطىء المحيطة بالمدينة لمراقبة سفن الروم التي تأتي بالامدادات ؟

---

١١٢. المصدر نفسه.

١١٣. ناصر خسرو علوي، سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، ١٩٧٠ ص ٤٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ناصر خسرو، سفرنامه.

١١٤. انظر كتابنا، تاريخ جـ١، ط٢، ص ٤٠٧ ـ ٤١١.

١١٥. محمود شيت خطاب، قادة الفتح الاسلامي (قادة فتح الشام ومصر)، بيروت، ص ١١٠، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: محمود شيت، قاده.

١١٦. سمي فيما بعد بحصن «كفر قدح» كما يقول ابن عساكر

١١٧. محمد عبد الهادي، من تاريخ التحصينات، ص ٤٢٩.

١١٨. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥٠.

١١٩. المصدر نفسه.

وعلى أية حال فان سفيان ضيق الخناق على طرابلس حتى ألجأ أهلها الى الاعتصام بالحصن الغربي عند رأس الميناء القريب من الجزر(١٢٠)، حيث راحوا يفكرون جدياً في النجاة من قبضة سفيان، بعد أن يئسوا من طول الحصار الذي امتد أشهراً، حيث نفدت منهم المؤن والأقوات. وعجزوا عن الخروج من المدينة للتصدي لقوات سفيان، فكتبوا إلى امبراطور الروم (البيزنطي) «قنسطان الثاني» (٦٤١ ـ ٦٦٨م) يسألونه أن يمدهم بمساعدة حربية، أو يبعث إليهم بمراكب يهربون بها إلى بلاده(١٢١). ولكن قنسطانز كان أعجز من أن يدافع عن ممتلكات الامبراطورية، وأن المسلمين مصممون على اقتلاع حكم الروم من بلاد الشام كلها، ولذا فانه اكتفى بارسال مجموعة من المراكب تسللت ليلا الى ميناء المدينة حتى لا يراها المسلمون، ونرجح أنها رست عند الجزر في البحر، فركبها الروم بعد أن حملوا معهم أمتعتهم وأثاثهم، وأخلوا المدينة من صغيرهم وكبيرهم، وأبحروا تحت جنح الظلام(١٢٢).

و يذكر ابن عساكر أن الروم أشعلوا النيران في جنبات المدينة عند فرارهم، وهم يهدفون بذلك تدميرها حتى لا تصلح لاقامة العرب فيها. وعندما أصبح سفيان في اليوم التالي، قام لشن الغارة عليها كعادته من كل يوم، ولكنه لم يلق مقاومة، ووجد الحصن الذي كان يحتمي به الروم خالياً، فدخله وجنوده. وعندما قام المسلمون بتفتيش المدينة وجدوا يهودياً قد تحصن من النار في سرب فيها، فأخرجوه وأخبرهم خبر الروم ومسيرهم في المراكب(١٢٣).

وهكذا تم لسفيان فتح طرابلس، فدخلها وهي خاوية على عروشها دون قتال سنة ٢٥ هـ/٦٤٦م وكتب الى معاوية في دمشق يبشره بهذا الفتح المبين. وارتفعت راية الاسلام فوق أسوار المدينة. ومنذ ذلك التاريخ دخلت حلبة الصراع بين العرب والبيزنطيين، فسطرت أروع الصفحات المشرفة والمشرقة من النضال والجهاد والصمود.

---

١٢٠. المصدر نفسه.

١٢١. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥١؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ١٩٥، ص ٢٩٦؛ ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٦.

١٢٢. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٦.

١٢٣. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٦ ـ ٧٧؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ٦، ص ١٨٤.

الاحتواء الاسلامي للشعوب غير العربية

إن أهم ما يسترعي اهتمام الباحثين والمؤرخين، وهم يدرسون الحياة السياسية في الدولة الأموية، ذلك الظهور الواضح للعناصر غير العربية على مسرح الأحداث، من: فرس، وروم، وأقباط، وجراجمة، وغيرهم، وهم يشاركون في فتوحات الدولة العربية الاسلامية و يقاتلون أبناء جلدتهم، و يسهمون في بناء الأسطول الاسلامي، و يتولون قيادته وقيادة الجند، و يتسنمون المناصب الرفيعة حتى يصلون إلى إمرة المدن العربية. وهذه ظاهرة جديرة بتسليط الأضواء عليها، من حيث قدرة العنصر العربي على احتواء العناصر والقوميات غير العربية، وتحو يل أبناء الفرس والروم، وغيرهم إلى بناة للدولة العربية وحماة لأراضيها، وكذلك قدرة الاسلام والمسلمين على تطو يع أبناء الطوائف الأخرى لتعمل في خدمة الدولة الاسلامية، وفي عصر عرف لدى البعض بأنه «عصر التعصب الأموي للعروبة»، فشارك الروم، والفرس، والأقباط، والجراجمة والأنباط، والزط، وغيرهم من الأحباش والبربر فيما بعد، إلى جانب العرب المسلمين في أشهر معاركهم البحرية، وفي مقدمتها موقعة «ذات الصواري» وغزو جزيرة قبرص وأرواد وصقلية وحصار القسطنطينية، وفي الدفاع عن حدود الدولة العربية في الثغور البرية والبحرية وعند الحدود المتاخمة للدولة البيزنطية.

وتمدنا المصادر التاريخية القديمة بروايات كثيرة تؤكد هذه الظاهرة في وقت مبكر يسبق العصر الأموي، حتى أن اليهود كانوا من بين العناصر التي تشملهم تلك الظاهرة في عهد الخليفة عثمان بن عفان اذ أن المسلمين أسكنوا جماعة منهم في المدن المفتوحة على ساحل الشام، فقد ذكر المؤرخ الحافظ ابن عساكر أن معاو ية أسكن جماعة كبيرة من يهود الأردن في طرابلس بعد فتحها وجلاء البيزنطيين عنها حول سنة ٢٥هـ/٦٤٦م. ولم يسكنها غيرهم لبضع سنين (١٢٤). ونرى اشارة لذلك عند البلاذري (١٢٥) والمنبجي (١٢٦).

الأقباط:

وعن الأقباط واحتواء العروبة لهم، تفيدنا المعلومات التاريخية عن مشاركتهم العملية إلى جانب المسلمين في غزواتهم ومعاركهم البحرية ضد البيزنطيين، واسهامهم الفعال في صناعة المراكب وفي قيادتها أثناء القتال على حد سواء.

ولا غرو، فالأقباط كانوا مرحبين بالفتح العربي الاسلامي، منذ بدأت طلائع القائد

١٢٤. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٧؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ٦، ص ١٨٣.

١٢٥. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥١.

١٢٦. المنبجي، اغابيوس بن قسطنطين، كتاب العنوان، جـ٢، ص ٣٤٦.

عمرو بن العاص تصل الى حدود مصر الشرقية في شبه جزيرة سيناء، فقد ذكر المؤرخ المصري «عبد الرحمن بن عبد الحكم» المتوفى سنة ٢٥٧هـ «أنه كان بالاسكندرية أسقف يقال له «أبو ميامين» (لعله تصحيف: بنيامين)، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص الى مصر، كتب الى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، و يأمرهم بتلقي عمرو، فيقال: أن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعواناً لعمرو».

ثم يقول أنه خرج مع عمرو «جماعة من رؤساء القبط، وقد أصلحوا الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم» (١٢٧)

ولقد أسهم الأقباط، بشكل أو بآخر، في فتح جزيرة قبرص مع الفاتحين المسلمين من الصحابة حول سنة ٢٨هـ/٦٤٩م. و يتبين ذلك مما أورده «أبو نعيم الأصفهاني» اذ يقول «أخرج معاو ية غنائم قبرس الى أنطرطوس من ساحل حمص، ثم جعلها هناك في كنيسة يقال لها كنيسة معاو ية، ثم قام في الناس فقال: اني قاسم غنائمكم على ثلاثة أسهم: سهم لكم، وسهم للسفن، وسهم للقبط، فانه لم يكن لكم قوة على عدو البحر الا بالسفن والقبط. فقام أبو ذر (الغفاري) فقال: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا تأخذني في الله لومة لائم، أتقسم يا معاو ية للسفن سهماً، وانما هي فيئنا؟ وتقسم للقبط سهماً وانما هم أجراؤنا؟ فقسمها معاو ية على قول أبي ذر» (١٢٨).

ان في هذا النص اشارة واضحة الى مشاركة القبط في غزو قبرس، وميل معاو ية الى إشراكهم في الغنائم تقديراً لدورهم.

و يتجلى احتواء المسلمين للقبط في الموقعة البحرية الكبرى المعروفة ب «ذات الصواري» فقد خرج الأسطول البحري من سواحل مصر بقيادة عبد الله بن أبي السرح حول سنة ٣٤هـ/ ٦٥٥م. لقتال البيزنطيين، ومع الأسطول الاسلامي مراكب للأقباط شاركت في الموقعة مع مراكب العرب المسلمين، حيث يذكر المؤرخ «محمد بن جرير الطبري» في معرض تأريخه للموقعة أن «محمد بن حذيفة» حين تنابذ وقائد الأسطول «ابن أبي السرح» أقسم عليه «ابن أبي السرح»: «والله لا تركب معنا، قال: فاركب مع المسلمين؟ قال: اركب حيث شئت، فركب في مركب وحده ما معه الا القبط، حتى بلغوا ذات الصواري، فلقوا جموع الروم في خمسمائة مركب أو ستمائة فيها القسطنطين بن هرقل» (١٢٩).

١٢٧. ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، طبعة نيو يورك، ١٩٣٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عبد الحكم، فتوح.

١٢٨. أبو نعيم الأصبهاني، عبد الله (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٠ج دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧. جـ٥، ص ١٣٤. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو نعيم، حلية.

١٢٩. الطبري، تاريخ، جـ٤، ص ٢٩١.

و يذهب «ابن أعثم الكوفي» الى أبعد من ذلك في كتاب «الفتوح» المنسوب اليه، حين يقول ان المركب الذي كان فيه معاوية وزوجه وأولاده، وهو في الطريق الى غزو قبرس، كان يقوده ملاح قبطي يدعى «طليا» (١٣٠).

وكانت جاليات قبطية لا تزال تسكن مدن ساحل الشام حتى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، (الثامن الميلادي) على الأقل، بدليل مشاركتهم في تشييع جنازة الامام الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٤م. مع المسلمين واليهود والنصارى (١٣١).

الجراجمة:

أما الجراجمة فهم قوم كانوا يسكنون مدينة «الجرجومة» على جبل اللكام، عند معدن الزاج فيما بين بياس و بوقا، بالقرب من أنطاكية. وقد مر الاحتواء العربي لهم في عدة أدوار، وواجه بعض المصاعب حتى تم احتواؤهم في العصر الأموي، و باتوا يشكلون فرقة في جيوش المسلمين في مطلع القرن الثاني الهجري.

وتبدأ قصة علاقات المسلمين بالجراجمة منذ حركة الفتح لشمالي الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، في رواية لمؤرخ الفتوحات الاسلامية «البلاذري» مفادها أنه لما قدم أبو عبيدة بن الجراح الى أنطاكية وفتحها في سنة ١٥هـ/٦٣٦م. لزم أهل الجرجومة مدينتهم، وكان أمرهم الى بطريق أنطاكية وحاكمهم، وهموا باللحاق بالروم، اذ خافوا على أنفسهم فلم ينتبه المسلمون لهم، ولم ينبهوا عليهم. وعندما نقض أهل أنطاكية وغدروا بالمسلمين، وجه اليهم أبو عبيدة من فتحها ثانية، وولاها «حبيب بن مسلمة الفهري» فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم طلبوا الأمان والصلح فصالحهم على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام، وأن لا يؤخذوا بالجزية، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم، ودخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط وغيرهم، وأهل القرى في هذا الصلح، فسموا الرواديف (١٣٢). لأنهم تلوهم وليسوا منهم، (أي ليسوا من العرب والمسلمين)، و يقال: انهم جاؤوا بهم الى عسكر المسلمين وهم أرادف لهم فسموا رواديف، فكان الجراجمة يستقيمون للولاة مرة و يعوجون أخرى فيكاتبون الروم و يمالئونهم (١٣٣). ولذلك عرفوا بالمردة لكثرة تمردهم على العرب والبيزنطيين على حد سواء.

والجراجمة في الأصل من بلاد فارس، وقد خرجوا مع «سيف بن ذي يزن» الى اليمن

١٣٠. ابن أعثم الفتوح، نقلا من كتابات المؤرخين العرب، سهيل زكار، ص ٩٥.

١٣١. ابن أبي حاتم، الجرح، جـ١، ص ٢٠٢ (التقدمة)؛ ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٥، ص ٧١.

١٣٢. ظلت هذه التسمية شائعة حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

١٣٣. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٨٩.

لمساعدته في حربه ضد الأحباش، فعرفوا هناك بـ«الأ بناء» وفي صنعاء بـ«بني الأحرار» واستوطنوا بعد ذلك في البلاد، فعرفوا بالكوفة ب «الأحامرة» و بالبصرة: «الأساورة» و بالجزيرة: «الخضارمة»، و بالشام: «الجراجمة»، ولأمية بن أبي الصلت في «بني الأحرار» قوله وهو ينشد «سيف بن ذي يزن»:

لا يطلب الثأر الا كابن ذي يزن ... في البحر خيم للأعداء أحوالا
.. حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم ... تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
لله درهم من فتية صبروا ... ما إن رأيت لهم في الناس أمثالا
بيض مرازبة غلب أساورة ... أسد تربت في الغيضان أشبالا (١٣٤)

و بعضهم يعرف الجراجمة بأنهم قوم من العجم بالجزيرة، ففي حديث وهب قال: قال طالوت لداود عليه السلام: أنت رجل جريء، وفي جبالنا هذه جراجمة يجترمون الناس، أي لصوص يستلبون الناس و ينتهبونهم. و يقال: الجراجمة، نبط الشام، قال ابن بري: ومنه قول أبي وجزة:

... ... لو أن جمع الروم والجراجما (١٣٥)

وكان الجراجمة في الأصل من جوار «مرعش» المعروفة قديماً (جرما نيقية)، ثم انتقلوا إلى شمالي الشام واتخذوا مدينة الجرجومة عاصمة لهم (١٣٦). وكذلك عرفوا بالجرامقة نسبة الى جرما نيقية، و بالجراجمة نسبة الى الجرجومة، وهما من أصل واحد، ذكرهما المؤرخ «ابن الأثير» في حوادث سنة ١٠١هـ/ ٧٢٠م (١٣٧).

إذن، بدأت العلاقات بين المسلمين والجراجمة في دورها الأول في عهد الفتح أيام الخليفة عمر بن الخطاب، فاتخذهم المسلمون عيوناً لهم ومسالح ترصد الدروب عند جبل اللكام على الحدود المتاخمة للدولة البيزنطية ورفعوا عنهم الجزية، وسمحوا لهم بالحصول على نصيبهم من الغنائم إذا حضروا معهم الحرب، وهذه معاملة فريدة لم يحظ بها غيرهم من رعايا الدولة العربية فيما نعتقد.

على أن الجراجمة قلبوا ظهر المجن في عهد معاوية فأظهروا العداء للمسلمين

١٣٤. أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م) الأغاني، ٢٠ ح، طبعة بولاق، أعادت نشره بالاوفست دار الفكر للجميع، بيروت، ١٩٧٠. ترجمة «أمية بن أبي الصلت»، جـ١٦، ص ٧٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني.

١٣٥. اللسان، جـ١٤، ص ٣٦٣.

١٣٦. لامنس، هنري، تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من آثار، ٢ ج، بيروت، ١٩٨٣، جـ٢، ص ٥١، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا. لامنس، تسريح الأبصار.

١٣٧. ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص ٧٥.

وشاركوا الروم البيزنطيين في حملتهم البحرية التي استهدفت سواحل الشام في سنة ٤٩ هـ/ ٦٦٩م. وقد ذكرتهم المصادر اليونانية القديمة باسم المردة:

و يلاحظ أن البلاذري لم يورد تفصيلا لغزوة الروم هذه، كما لم يشر اليها غيره من المؤرخين المسلمين، وقد أشار إليها المؤرخ اليوناني «توافانس» المتوفي سنة ٨١٨م. فقال: «في سنة ٦٦٩ للمسيح دخل المردة لبنان واحتلوا كل ما يقع بين الجبل الأسود والمدينة المقدسة، وانضم إليهم كثير من أبناء البلاد والعبيد والأسرى، فبلغ عددهم في مدة وجيزة عدة آلاف»(١٣٨).

وكلمة المردة المستخدمة هنا هي كلمة فارسية مفردها «مرد Marde» ومعناها: الشجاع، وأطلق على الجراجمة أيضاً اسم «المَاردية Mardaites» وهي تسمية بيزنطية(١٣٩).

وعاد الجراجمة فساعدوا الروم في غزوة جديدة حيث انتزعوا مدينة حماة من المسلمين مغتنمين فرصة وفاة معاوية، ناقضين للهدنة، وعندما قصد ابنه «يزيد» لاستردادها اعترضه أهل الجبال وردوه عنها في سنة ٦٠ هـ(١٤٠).

واستمر خطرهم واضحاً في أيام عبد الملك بن مروان، ثم في أيام الوليد بن عبد الملك(١٤١)، الى أن أثبتوا مع الأنباط ـ بعد ذلك ـ صدق عهدهم تجاه المسلمين، ونجح هؤلاء في احتوائهم حتى مطلع القرن الثاني للهجرة، على الأقل، حيث نراهم يشكلون جزءاً من عسكر «مسلمة بن عبد الملك» حين خرج بأهل الشام لقتال «يزيد بن المهلب» في البصرة سنة ١٠١هـ/ ٧٢٠م. ونقف على ذلك في نص خطبة «ابن المهلب» التي أوردها ابن الأثير، ومنها قوله: «... يقولون: جاء أهل الشام ومسلمة، وما أهل الشام؟ هل هم الا تسعة أسياف، سبعة منها الي، وسيفان علي؟ وما مسلمة الا جرادة صفراء، أتاكم في برابرة وجرامقة وجراجمة وأنباط وأبناء فلاحين وأوباش وأخلاط..»(١٤٢).

---

١٣٨. بطرس ضو، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، ٢ج، دار النهار، بيروت، ١٩٧٠، جـ١، ص ٢٨١. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بطرس ضو، تاريخ.

١٣٩. والجراجمة مسيحيون على شيء من الفتور في عقيدتهم. صالح بن يحيى (٨٤٠هـ/١٤٣٦م)، تاريخ بيروت، تحقيق لويس شيخو: بيروت ١٩٦٩. الحاشية ص١٧. سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: صالح ابن يحيى، تاريخ. ومفرد جراجمة: جرجماني، كما ورد في الأغاني في قصيدة الأعشى همدان (دائرة المعارف الاسلامية، جـ١١، ص ١٥٠، ١٥١.

١٤٠. طنوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، ٢ ح، بيروت، ١٩٥٤. جـ١، ص٢٠٢. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الشدياق أخبار.

١٤١. راجع حركات الجراجمة في: البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٨٩، ص ١٩٠، وانظر كتابنا، تاريخ طرابلس جـ١، ص ١٢٥ ـ ١٣٢، ص ١٤٩ ـ ١٥١.

١٤٢. ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ٧٥.

الفرس:

أما عن اسكان الفرس في ساحل الشام، فان معاوية عندما انفرد بالخلافة سنة ٤١ هـ/ ٦٦١م. كان يضع نصب عينيه الاهتمام بتدعيم المدن الساحلية وتكثيف سكانها بعد أن هجرها كثير من الروم، والتحقوا بأبناء جلدتهم، كما قام هو وأخوه يزيد باجلاء الكثير منهم عن البلاد لذلك قام بعد وقت قصير بارسال جماعة من الفرس والأساورة(١٤٣) ليسكنوا الساحل و يعمروه فنزل الفرس في ساحل الشام على ما يقول «ابن واضح اليعقوبي» المتوفى سنة ٢٨٤ هـ: .... و بعلبك وأهلها قوم من الفرس وفي أطرافها قوم من اليمن وجبل الجليل وأهلها قوم من عاملة.. ولبنان صيدا و بها قوم من قريش ومن اليمن، ولجند دمشق من الكور على الساحل: كورة عرقة ولها مدينة قديمة فيها قوم من الفرس ناقلة، و بها قوم من ربيعة من بني حنيفة، ومدينة أطرابلس وأهلها قوم من الفرس كان معاوية بن أبي سفيان نقلهم إليها، ولهم مينا عجيب يحتمل ألف مركب، وجبيل وصيدا و بيروت، وأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية بن أبي سفيا»(١٤٤).

ولم يوضح «اليعقوبي» تاريخ نقل الفرس إلى ساحل الشام، ولكن البلاذري يضع تاريخاً لذلك عند حديثه عن أنطاكية فيقول ان معاوية نقل اليها في سنة ٤٢ هـ. جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص ومن المصرين(١٤٥). و يذكر في موضع آخر عن أحد الأنطاكيين أن معاوية نقل من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية الى سواحل الأردن صور وعكا وغيرها سنة ٤٢ هـ. ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى انطاكية في هذه السنة أو قبلها أو بعدها بسنة جماعة(١٤٦). فكان من قواد الفرس «مسلم ابن عبد الله جد عبد الله بن حبيب بن النعمان بن مسلم الأنطاكي»(١٤٧). وهذا يعني أن

---

١٤٣. الأساورة: جمع سوار أو أسوار، وهو اصطلاح الفرس: القائد أو الرئيس وهم قوم من الفرس، ربما كانوا قواداً قبل ابتداء الدولة الساسانية، فلقبوا بذلك، أو ربما استحدثهم أردشير بن بابك أول ملوك الدولة الساسانية ولقبهم بهذا اللقب أما لكونهم كانوا حماة الحرب مخصوصين بقيادة الجيش أو لأنهم كانوا في مجلس الطبقة الأولى من أصحاب الرتب يجلسون مع أبناء الملوك عن يمين الملك. ونهر الأساورة بالبصرة منسوب إليهم لأن قوماً منهم نزلوا البصرة وحفروه. دائرة معارف البستاني، جـ٤، ص ٣٢١.

١٤٤. اليعقوبي، البلدان، ص٢٣٧. و يذكر ابن المنجم (من رجال القرن الخامس الهجري) في كتابه أكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان نشر مكتبة المثنى، بغداد، ص١٦. ما نصه: «مدينة طرابلس..... وهي على البحر الشامي، وفيها مرسى عظيم، فيه ألف مركب، وأهلها من قريش» نقلهم اليها معاوية بن أبي سفيان... وأقول: ان هذا النص منقول من كتاب البلدان لليعقوبي كما هو واضح وقد خلط ابن المنجم بين طرابلس الشام وطرابلس الغرب اذ يعتبر طرابلس هنا أنها الغربية ومع ذلك يقول أنها على البحر الشامي، كما وقع التصحيف أيضاً بين كلمتي: «فرس» و «قريش» فيلاحظ.

١٤٥. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٧٥.

١٤٦. المصدر نفسه.

١٤٧. المصدر نفسه.

عمليـة نقل الفرس الى الساحل تمت بعد أن تولى معاوية الخلافة مباشرة، غير أنه يفهم من السياق أن الفرس كانوا في بلاد الشام ومدنه الداخلية قبل حركة الفتح الاسلامي، ويؤيد ذلك ما ذكره البلاذري وابن عساكر عن فتح بعلبك ونص كتاب الصلح الذي يؤكد على وجود العنصر الفارسي فيها الى جانب الروم والعرب والأنباط.

ولا يقتصر ذكر الفرس واسكانهم في ساحل الشام على اليعقوبي والبلاذري فحسب، وانما ينضم اليهما أبو نعيم الأصبهاني، وابن عساكر الدمشقي، وابن العديم الحلبي. وقد قيل أن معاوية أغزى ابنه يزيد بلاد الروم ومعه «فرس» أنطاكية وبعلبك وغيرهم في سنة ٤٩ هـ. أو ٥٦ هـ(١٤٨) وممن نزل ساحل الشام من الفرس: الصحابي «سلمان الفارسي» المتوفى سنة ٣٤ هـ./ ٦٥٤م (١٤٩). وقد رابط في بيروت (١٥٠). وفي عهد الوليد بن عبد الملك ولي

---

١٤٨. البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، أنساب الأشراف، ق ٢ ج ٤، نشره ماكس شلوسنجر، القدس، ١٩٣٨. ق ٢، جـ٤، ص ٣. وق ٤، جـ٦، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٩، ص ٨٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري: أنساب؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، جـ١٧، ص ٢١٠، اليعقوبي، تاريخ جـ٢، ص ٢٢٩؛ ابن حزم، أبو محمد علي بن حزم (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧. ص ٢٨٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حزم، جمهرة؛ البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) معجم ما استعجم، ٤ ح، تحقيق مصطفى السقا، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٥. جـ١، ص ٥٨٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البكري، معجم؛ ياقوت، معجم، جـ٢، ص ٥٣٤.

١٤٩. ابن الأثير، أسد الغابة، جـ٢، ص ٣٢٨.

١٥٠. نزل عقب فتحها مباشرة، حيث روى «محمد بن المبارك الصوري» المتوفي سنة ٢١٥هـ. أن سلمان قدم دمشق، فلم يبق فيها شريف الا عرض عليه المنزل، فقال: اني عزمت على بشير بن سعد مرتي هذه، فسأل عن أبي الدرداء، فقيل: مرابط: فقال: وأين مرابطكم يا أهل دمشق؟ قالوا: بيروت. نخرج للرباط معه هناك. وكان يصحبه في رباطه «عبد الملك بن أبي ذر الغفاري» أبو زرعة الدمشقي، ٢ ج، تحقيق شكر الله ابن نعمة الله الفرجاني. مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٨٠. جـ١، ص ٢٢٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو زرعه، تاريخ؛ البلاذري، أنساب، تحقيق محمد حميد الله. القاهرة، ١٩٥٩،جـ١، ١٨٨؛ الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، تاريخ بغداد، ١٤ ج، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، جـ١، ص ١٦٢ ـ ١٧١ ـ سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الخطيب البغدادي، تاريخ؛ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، ٨ ح، دار صادر بيروت، ١٩٥٧، جـ٢، ص ٦٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الخطيب البغدادي، تاريخ؛ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، ٨ ح، دار صادر بيروت، ١٩٥٧، جـ٢، ص ٦٦. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد، طبقات؛ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، المعارف تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ص ٢٧٠، ص ٢٧١، سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: ابن قتيبة، المعارف؛ ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٩٢، جـ٢٤، ص ٣٧٨؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ٦، ص ١٩٧؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، تاريخ الاسلام، جـ٢، نشره حسام الدين القدسي، القاهرة، ص ١٥٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الذهبي، تاريخ؛ ابن حجر العسقلاني، تهذيب، جـ٤، ص ١٣٧. وانظر بحثاً لنا بعنوان: «الرباط والمرابطون في ساحل بلاد الشام من الفتح الاسلامي حتى الحروب

غزو البحر الشامي بعض الموالي الفرس مثل: «أبو خراسان» وأخيه «الليث بن تميم الفارسي» (١٥١) و«سفيان الفارسي» (١٥٢). وفي أيام هشام بن عبد الملك كان على مدينة صور أمير فارسي الأصل هو: «خالد بن الحسفان الفارسي» (١٥٣). وحتى القرن الثالث الهجري كان في مدينة صور مسجد اختص به الفرس من أهلها عرف بمسجد الفرس (١٥٤)، وكان أهلها أخلاطاً من الناس (١٥٥). أما بعلبك فكان معظم سكانها من الفرس في عهد معاوية ثم في عهد عبد الملك الذي قام باعطائهم خمس مدينة طرابلس (١٥٦) ولا شك أن الفرس الذين كانوا في بعلبك تحت أمرة «سفيان بن مجيب الأزدي» شاركوا مع العرب في فتح طرابلس. وفي سنة ٣٥ هـ. خرج سفيان من بعلبك بالفرس وبخيل له سواهم لاقتفاء أثر «عبد الرحمن بن عديس» الذي هرب مع أصحابه من السجن في مصر (١٥٧). وكانت بعلبك مركزاً هاماً لامداد مدن الساحل بالقوات المقاتلة والسكان، فعندما فتح معاوية قبرس في المرة الثانية سنة ٣٣ هـ. «بعث إليها باثني عشر ألفاً كلهم أهل ديوان، فبنوا بها المساجد، ونقل اليها جماعة من بعلبك، وبنى بها مدينة» (١٥٨).

وقد أيد بعضهم رواية نقل معاوية للفرس الى سواحل الشام بما فيها طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وأن بني أمية سلموهم السواحل لحراستها من غزوات المردة الذين استقدمهم ملوك القسطنطينية (١٥٩). بينما اعترض بعضهم على هذه الرواية، واعتبرها

الصليبية»، قدم للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية بدمشق (١٦ ـ ٢٢ جمادى الآخر ١٤٠١هـ/ ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١م)، ونشرته مجلة دراسات تاريخية بدمشق عدد خاص، ٥/ ٧٧ ـ ٩٩. سيشار لهذا المرجع، عمر تدمري، الرباط والمرابطون.

١٥١. ذكر لهما ابن عساكر غزوة إلى القسطنطينية في عهد سليمان بن عبد الملك. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ٣٦، ص ١٩٧، ١٩٨.

١٥٢. ابن العديم، عمر بن عبد العزيز (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، مخطوط في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٩٢٩. جـ٧، ص ٢٢٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن العديم، بغية، ابن عساكر، تاريخ (مخ)، جـ١٥، ١٢٢.

١٥٣. ابن عساكر، تاريخ (مخ)، جـ٤٦، ص ٧٦٧.

١٥٤. ابن عساكر، تاريخ جـ٤، ص ١٣٦. وكان أمامه ابراهيم بن اسحق بن أحمد أبو اسحق ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ٢٦، ص ١١٥.

١٥٥. اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٧.

١٥٦. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٨.

١٥٧. ابن عساكر تاريخ (مخ) جـ٣٦. ص ١٠٢، ص ١٠٣؛ ابن حجر العسقلاني، الاصابة، جـ٢، ص ٥٥.

١٥٨. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٨٢. وانظر دراسة لنا في مجلة الفكر العربي ع ٢٩، بيروت، ١٩٨٢، ص ٢٠٥ ـ ٢٣٠ بعنوان: «مدينة بعلبك وحضورها التاريخي في المصادر العربية خلال العصر الأموي. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عمر تدمري، مدينة بعلبك.

١٥٩. لويس شيخو في تحقيقه لكتاب «تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، ص ١٤، بيروت ١٨٩٨.

الأستاذ محمد عزة دروزة غير معقولة لأن الأمويين كانوا يتبعون سياسة عربية، فلم يكن من المعقول أن يأتوا بجماعة من الفرس، ويسكنوهم في سواحل الشام ليتقووا بهم، والعرب في أوج قوتهم وقدرتهم ونشاطهم(١٦٠).

ونحن نرى أنه ليس من المستبعد أن ينقل معاوية جماعة من الفرس الى مدن الساحل الشامي في سنة ٤٢ هـ. كما روى البلاذري، بعد أن آلت الخلافة اليه سنة ٤١ هـ. وتلك سياسة حكيمة اتبعها معاوية ليبعث الحياة على الأقل في المدن الساحلية، تماماً كما فعل من قبل عندما نقل يهوداً من الأردن وأسكنهم في طرابلس عقب فتحها(١٦١). مع ملاحظة أن أحداً من الباحثين لم يعترض على رواية اسكان معاوية لليهود في طرابلس، بل ان أحدهم أيد تلك الرواية(١٦٢).

وقد يقال: بما أن الفرس كانوا أشد أعداء الروم، فمن حسن السياسة أن يكونوا بالثغور الساحلية المواجهة لهم، وبذلك يكفونه مؤونة حماية الثغور والدفاع عنها، خصوصاً وأنهم خبروا طرق القتال مع الروم في صراعهم الطويل، وهذه السياسة من مفاخر معاوية. هذا، إلى أن من الممكن القول أن عملية النقل كانت تستهدف فيما استهدفته تخفيف الكثافة السكانية التي كانوا عليها في العراق، الى جانب الاستفادة من خبرتهم في صنع السفن وركوب البحر. ولا شك أن أولئك الفرس كانوا قد دخلوا في الاسلام وأصبحوا من المستعربين فأقاموا مع العرب في المدن المفتوحة، وتعلموا العربية، وحملوا أسماء عربية.

ولو رجعنا إلى كتب التراجم ورجال الحديث لوجدنا كثيراً من المحدثين الذين يغلب على بعضهم لقب «الفارسي» ممن نزلوا المدن الساحلية بالاضافة الى بعلبك، ومنهم: محمد بن موسى أو ابن أبي موسى الذي يحدث عنه الامام الأوزاعي، قال أبو نعيم: هو مولى بني أمية، فارسي الأصل، نقلهم معاوية الى بيروت(١٦٣). وحسان بن عطية أبو بكر المحاربي البصري الأصل من الفرس من موالي محارب من ناقلة الشام، سكن بيروت(١٦٤). وأبو

١٦٠. محمد عزة دروزة، العرب والعروبة من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر الهجري، ٣ج، دمشق، ١٩٦٠. جـ١، ص ١٥٣، ص ١٥٤. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: محمد عزة، العرب.

١٦١. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥١؛ ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص٧٦؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ٦، ص ١٨٣.

١٦٢. سيد عبد العزيز، طرابلس، ص٣٦.

١٦٣. أبو نعيم الأصبهاني، حلية، جـ٦، ص١٤٧.

١٦٤. البخاري، تاريخ، جـ٣، ص٣٣؛ ابن حبان، مشاهير علماء الأنصار، نشره فلايشهمر، ض ١٨٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حبان، مشاهير؛ أبو نعيم الأصبهاني، حلية جـ٦، ص ٧٠؛ ابن عساكر، تهذيب، جـ٤، ص١٤٣؛ الذهبي، تاريخ، جـ٥، ص ٦٠.

اسحاق ابراهيم بن عبد الله الفارسي، وكان بصور(١٦٥). وأبو سعيد أحمد بن سعيد بن غيث الصوري الفارسي الامام المعدل، الذي سمعه ابن جميع الصيداوي في صور(١٦٦). وابراهيم (ابن الحسن بن أبي كريمة الصيداوي الفارسي الأصل(١٦٧). وأشعث بن محمد الأشعث أبو النعمان الفارسي المعروف بأبي صيرة، وقد حدث بطرابلس(١٦٨). وأحمد بن عمرو أبو جعفر الفارسي الذي روى بدمشق عن ابن الضحاك البعلبكي(١٦٩). وأحمد بن هشام بن الليث الفارسي الذي حدث بصور(١٧٠). وجده الليث بن تميم الفارسي، وهو من أهل طرابلس ويروي عنه الوليد بن مسلم المتوفى سنة ١٩٥ هـ(١٧١). وأبو الفضل عقيل بن محمد الفارسي الفقيه نزيل بعلبك(١٧٢). وأبو الرضا محمد بن الرضا من فرس بعلبك وحدث بها عن محمد بن هاشم البعلبكي(١٧٣). وأبو صالح محمد بن حفص الفارسي البعلبكي الذي حدث عن ابن كثير الصوري(١٧٤). وأبو السري محمد بن داود بن بيوس البعلبكي الفارسي(١٧٥). وأبو صالح محمد بن عمر الفارسي الذي حدث ببعلبك عن ابن كثير الصوري(١٧٦). وعلي بن محمد بن حفص الفارسي الذي يروي عن عبد الحميد بن بكار البيروتي(١٧٧). هذا فضلا عن: سلمان الفارسي الصحابي، وسفيان الفارسي، وغيرهما.

وبطبيعة الحال، لم يكن الفرس ليشكلوا الأغلبية الساحقة من سكان المدن التي نقلوا اليها، بل نزلوا الى جانب عناصر أخرى بقيت في تلك المدن أو كانت فيها من الروم واليهود والقبط والأنباط، فضلا عن العرب، فقد ذكر البلاذري عن محدث في مدينة صور هو

١٦٥. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ٣٧، ص٣٨٢.

١٦٦. ابن جميع الصيداوي، معجم الشيوخ، مخطوطة ليدن. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن جميع، معجم.

١٦٧. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ٤، ص ١٦١؛ ابن عساكر، تهذيب جـ٢، ص ٢٠٤.

١٦٨. ابن عساكر، تاريخ جـ٦، ص٩٧.

١٦٩. ابن عساكر، تاريخ (مخ)، جـ٣، ٨٦، جـ٢٢، ص١٤٧.

١٧٠. ابن جميع، معجم، ص ٨٢؛ ابن العديم بغية، جـ٢، ص ١١٥؛ ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ٢٨، ص ١١١.

١٧١. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص٧٦.

١٧٢. السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) طبقات الشافعية الكبرى، ١٠ج، تحقيق محمود محمد الطناجي، وعبد الفتاح الحلو، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦. جـ٢، ص ٢٧٠.

١٧٣. ابن عساكر، تاريخ (مخ) ج ٤٠، ص ١٧٣.

١٧٤. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ٣٧، ص ٤١٣، جـ٤٢، ص٢٦٦.

١٧٥. المصدر السابق، جـ١١، ص ٥٩٩، جـ٣٧، ص ٤٨٣.

١٧٦. السمعاني، الأنساب، ص١٨٦أ؛ ابن عساكر، تازيخ (مخ) ٣٩٢، ص ٣٢.

١٧٧. السمعاني، الأنساب، ص ١٩٩أ؛ ابن حجر العسقلاني، تهذيب، جـ٦، ص ١٠٩، جـ١١، ص ٣٨٥.

هشام بن الليث الصوري أن مشايخه قالوا: «نزلنا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم. ثم نزع إلينا أهل بلدان شتى فنزلوها معنا، وكذلك جميع سواحل الشام»[178] كذلك ذكر الطبري أسماء بعض وجوه أهل الكوفة وأشراف العراق الذين أخرجهم عثمان إلى دمشق ثم أخرجهم معاوية الى حمص فقام واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأنزلهم ساحل الشام وأجرى عليهم رزقاً وألزمهم الدروب، وذلك في سنة ٣٣ هـ[179]. وذكر ابن عساكر أن عبد الملك أعطى الفرس خمس طرابلس، وهذا يعني أن أربعة أخماس المدينة الباقية من العرب وغيرهم[180].

ويبدو أن العرب كانوا يخشون في أول الأمر الاقامة في المواني والمدن الساحلية الشامية التي كانت هدفاً لغارات البيزنطيين، ولذا نجد معاوية يتبع سياسة اقطاع الأراضي عليهم، ليس لتكوين طبقة من المزارعين، بل لتدعيم شأن المحاربين المرابطين في الثغور الخطرة، فأغرى العرب بتملك الأراضي ليحل مشكلة اسكان الساحل[181]. وكان عثمان قد أصدر تعليماته الى معاوية يأمره فيها «بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزله اياها قطائع، ففعل»[182]. ولكن العرب لم يتحمسوا في البداية لهذه الاغراءات. ولذلك نرى معاوية يلجأ ثانية الى الاستعانة بغير العرب ليعمروا المدن الساحلية، فيتجه الى استقدام الفرس من الداخل وانزالهم في الساحل[183].

وبالرغم من كل ما أسلفناه حول إسكان الفرس في المدن الساحلية، فاننا نرجح أن يكون الذين جلبوا لتلك الثغور كان معظمهم، وان لم يكونوا جميعاً، من الخبراء في صناعة السفن وما يلزمها، وبذلك لن يكون ثمة مانع من وجودهم باعتبارهم جماعة من الفنيين يعملون في صناعة السفن المستحدثة لانشاء أسطول اسلامي يواجه أساطيل الروم في البحر المتوسط، وبذلك لن يكون على معاوية من حرج في استخدام هؤلاء الفرس وغيرهم حتى من بقايا الروم في اعداد الأساطيل البحرية، شأنهم في ذلك شأن القبط كما مر.

كما أن معاوية أذن لجماعة من الروم البيزنطيين بالنزول في مدينة طرابلس

---

١٧٨. البلاذري، فتوح، ق ١، ١٤٠.
١٧٩. البلاذري، أنساب، جـ٥، ص ٤٣، ق ٤ جـ١، ص ٣٥٢، الطبري، تاريخ جـ٤، ص ٣٢٦.
١٨٠. ابن عساكر، تاريخ (مخ) جـ١٦، ص ٧٨.
١٨١. فتحي عثمان، الحدود، جـ١، ص ٣٣٨.
١٨٢. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٢٧؛ عبد العزيز الدوري، «العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام»، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ١٩٦٢. ص ٢٨.
سيشار لهذا المرجع عبد العزيز، العرب.
١٨٣. اليعقوبي البلدان، ص ٣٢٧؛ نقولا زيادة، جغرافية الشام عند جغرافيي القرن الرابع الهجري، بحث القي في مؤتمر بلاد الشام الثالث سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: نقولا زيادة. جغرافية.

والاقامة فيها بعد أن استأمنوا[184]، ومن ناحية أخرى نقل في سنة ٤٩ هـ. أو ٥٠ هـ. قوماً من زط البصرة والسيابجة[185]. وأنزل بعضهم في انطاكية، وقد أطلق اسمهم على المحلة التي نزلوا فيها، فعرفت بمحلة الزط. وانتشروا فيما بعد في نواحي أنطاكية، فكان ببوقا من أعمال أنطاكية قوم من أولادهم يعرفون بالزط[186]، وهم من الهنود[187].

وقد طبق الوليد بن عبد الملك سياسة معاوية أيضاً، فنقل الى أنطاكية قوماً من الزط السند في أيامه (٨٦ ـ ٩٦هـ./ ٧٠٥ ـ ٧١٥م) ممن حملهم محمد بن القاسم الثقفي عامل الحجاج بن يوسف على السند، فبعث بهم الحجاج الى الشام، فنقلهم الوليد الى أنطاكية مع جواميسهم[188].

وهكذا نرى احتواء العروبة والاسلام للعناصر غير العربية منذ وقت مبكر، وكان لبعض تلك العناصر حضور واضح في مجريات الأحداث في العهد الأموي، وخاصة العنصر الفارسي حيث كان ولاؤهم ثابتاً وقوياً في بلاد الشام لبني أمية، فاعتمد هؤلاء عليهم وأخلص كل طرف للآخر. وعمل الفرس في صناعة السفن، وقادوا المراكب الحربية للدولة العربية، ويظهر ذلك من نص نقف عليه عند ابن عساكر، مفاده أن رجلا رومياً نجح في قتل عامل خراج طرابلس ومن معه، وفر الى القسطنطينية، فتمكن منه اثنان من الفرس من أهل بعلبك، كانا يقودان مركبين، وقد خرجا بهما بناء لأمر أمير البحر من عكا الى جزيرة قبرس للوقوف على أخبار البيزنطيين، ويذكر النص أن اسم احدهما «قابوس» والآخر «سابور» وأنهما كانا في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٥هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥م) وهما لا يزالان يحسنان التكلم بالفارسية، وحين أتيا بالرومي الى عبد الملك أمر بقتله، وكافأ الفرس بأن أقطعهم خمس مدينة طرابلس فسكنوها[189].

---

١٨٤. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٥٠، ص ١٥١.
١٨٥. هكذا في فتوح البلدان، ق ١، ص ١٩٢، البلاذري، انساب، جـ٤، ص ١٠٦، ١١٢ وذكرها محمد أسعد طلس: «السبايجة» بتقديم الباء على الياء نقلا عن «المحفص» اذ مفردها «سيبيجي» أنظر تاريخ الأمة العربية (عصر الاتساق)، بيروت، ١٩٥٨، ص ٨٠. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: محمد طلس: تاريخ الزبيدي، مرتضى، تاج العروس، جـ٦، تحقيق حسين نصار، الكويت ١٩٦٩. السبابجة: قوم ذوو جلد من السند والهند يكونون مع رئيس السفينة البحرية يبذرقونها، واحدهم: سبيجي.
١٨٦. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٩٢.
١٨٧. المسعودي، التنبيه، ص ٣٠٧، ص ٣٠٨.
١٨٨. البلاذري، فتوح، ق ١، ص ١٩٢، ١٩٨.
١٨٩. ابن عساكر، تاريخ (مخ) ١٦، ص ٧٨.